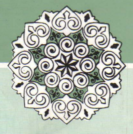
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أعلام الإسلام
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى
(٨)



جمال الدين الأفغانى

الحكيم الثائر

د. محمد سلام مدكور

القاهرة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أعلام الإسلام
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى
(٨)

جمال الدين الأفغانى

الحكيم الثائر

د. محمد سلام مدكور

القاهرة
جمادى الأولى ١٤٢٦هـ - يونيو ٢٠٠٥م

يشرف على إصدارها

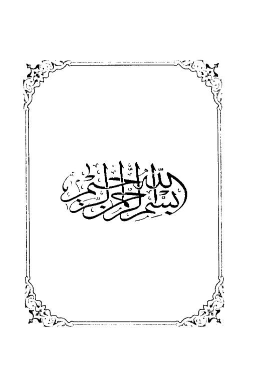
الدكتور / **محمود حمدى زقزوق**

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور / **عبد الصبور مرزوق**

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم



«احفظوا المال فأنتم إليه أحوج، إن الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب».

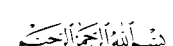
«جمال الدين»

«يخيل إليَّ من حرية فكر السيد جمال الدين الأفغانى ونبالة قيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه، أننى أرى وجهًا لوجه أحد من عرفتهم من القدماء الفلاسفة، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد، أو أحد أساطين الحكمة الشرقيين الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية».

«رينان»

الفيلسوف الفرنسى





مقدمة

دفعنى ما يجرى الآن فى الشرق من الحركات الوطنية المتشابهة الغرض، والمتحدة الغاية إلى دراسة الكثير من تاريخ الشرق الحديث لأتعرف على بعض الأدوار التى تحرك فيها الشرق ضد الاستعمار، وأتبين مقدار ما وصل إليه من تلك الحركات القوية العنيفة.

وكان لزاما علىَّ وأنا بهذا الصدد أن أبحث فى حركات الشرق من الناحية الدينية، والسياسية، والاجتماعية، ولنعبر عن هذا بكلمة مختصرة عامة، ولتكن : النهضة الفكرية فى الشرق.

والبحث عن النهضة يتطلب البحث عن مُنشئها لأن النهضات فى الشعوب والأمم وليدة تفكير الفلاسفة والمصلحين، وصفوة خواطرهم، وزبدة تجاربهم، وجنى غرسهم.

وإذا كانت النهضات فى العالم جديرة بالبحث خليقة بأعمق الدرس، فمن الخطأ أن لا نحيط بتاريخ أولئك الأعلام، لأن الوقوف على سيرة أولئك النوابغ كاملة مستوفاة، والإحاطة بتفاصيل حياتهم محللة مستقصاة ليست دون ذلك شيئًا ولا أقل منه نفعًا، إذ هى المنهاج الواضح لمقاصد حياتهم، والمفتاح الصادق لمغالق أفكارهم، والدليل البين فى غامض معانيهم، والبرهان الساطع فى بيان مراميهم، بل تتبع سير

المصلحين هو الشطر الأنفس من شطرى آثارهم، والدائرة التى فيها محور جميع أعمالهم، وحياتهم هى الجديرة بأن تكون محل دراسة وتحليل، وبحث وتمحيص. فهى أحفل بالعبر الناطقة، والعظات البالغة، والأمثلة الحسنة والقدوة الصالحة من دراسة آثارهم.

وتاريخ الإسلام يزخر بتيار حافل من رجالاته العظام الذين تركوا على ظهر الحياة آثارًا خالدة فى شتى العلوم والفنون. والسياسة والاجتماع والأدب، وكل شأن امتازت به الإنسانية فى أدوارها التى مرت بها، وأدركها عليها الإسلام.

فلو عنى المسلمون بدراسة تاريخ عظمائهم دراسة تحليلية ليتبينوا منها مواطن العظمة لأخرجوا للناس تاريخًا حافلاً بشتى نواحى الشجاعة، والحكمة، والسياسة، والحنكة، تعجز الحياة عن رؤية مثله عظمة وجلالاً.

لهذا اشتد حرص الغربيين على التنقيب عن أخبار الذين مضوا من جهابذة الكتاب، وأعلام الفلاسفة، وأساطين الحكمة. وظهر تنافسهم فى تحليل الشخصيات الكبيرة، وكتابة التراجم عن زعمائهم ومصلحيهم، وتعرف كل دقيقة وجليلة عن سير النابغين من أبناء أمتهم وغيرهم.

أما نحن معشر الشرقيين فلا نكاد نعرف عن زعمائنا - رحمهم الله - ولا عن قادتنا الأبرار إلا النادر الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع. بل الكثير منا يقرأ الكتب والمؤلفات العديدة فى مختلف العلوم للفلاسفة والعباقرة كابن سينا، وابن رشد، والغزالى، وغيرهم من العلماء .. ولا يكاد - مع الأسف - يعرف عن تاريخ أصحابها شيئًا.

كذلك نحفظ أسماء عظمائنا، ونذكرهم بالفخر، والإعجاب عند كل حركة سياسية، أو ظاهرة وطنية. وجلنا لا دراية له بأطوار حياة هذا الزعيم وذاك القائد وذلك الإمام. وما اكتنفها من مشقة وهوان حتى

أصحاب المذاهب الإسلامية لم تكن لنا عناية بأمرهم ولا حفل بشأنهم مع أننا أحوج ما نكون إلى ذلك فى اتخاذ المثل والتوجيه الصحيح.

ولمَ نذهب بعيداً وهذا جمال الدين الأفغانى الذى نحن بصدده الآن نذكره فى مطلع كل ناحية من نواحى نهضتنا. ونعترف له بالفضل فى تحريك نفوس المصريين بل الشرقيين إلى النهضة، وتطلعهم إلى الحرية، وقد كنا إلى وقت قريب لا نكاد نعرف عن أدوار حياته شيئًا. ولا يكاد يوجد عندنا فى كتب المؤرخين الشرقيين إلا أسطرًا أو صفحات معدودة عن حياته.

ولقد بلغ من اهتمام الغربيين بمعرفة تاريخ العظماء والنبغاء أن كتبوا عن السيد جمال الدين الشىء الكثير ضمن كتاباتهم، وهذا تقدير منهم للمصلحين والمجددين يقابل بالثناء والإعجاب، نود - نحن المصريين - أن توجد فينا هذه الروح الطيبة ونقتدى بهذه القدوة الحسنة حتى نظفر بأمانينا، ونمشى قُدما إلى المجد جنبًا إلى جنب.

كل هذا دفعنى منذ عهد الطلب إلى أن أتجه بهمتى، أقتطع من وقت الطالب المشحون بالدرس والاستذكار جزءًا نفيسًا من عمرى لهذه الناحية، فأخرجت أول ما أخرجت سنة ١٩٣٧م كتابًا عن شخصية ذات أثر خطير فى توجيهنا وتوجيه الشرق والمسلمين فى العصور الحاضرة إلى الثورة العارمة على كل ضعف وتحلل، واختلاف وتشعب، ألا وهو السيد جمال الدين الأفغانى. باعث النهضة الفكرية فى الشرق، وأستاذ مدرسة التحرر، وكان هذا أول كتاب مستقل ظهر عن السيد جمال الدين الأفغانى باللغة العربية.

ولما كان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية قائمًا بأكبر قسط فى نشر الثقافات التى توقظ الوعى، وطلب المشرفون عليه مشكورين أن أسهم

بنصيبى معهم رأيت أن يكون أول ما أتقدم به هو أن أجدد عهدى بالسيد جمال الدين الأفغانى فأخرج للناس زبد ما كتبت حين ذاك فى مقدار يتناسب مع الرسائل التى يخرجها المجلس. حتى يوفقنى الله فأخرج عنه كتابا شاملاً لأضعاف ما كتبته من قبل، وخاصة أن مواده معدة لدىّ لا يعوزها أكثر من إعادة النظر فيها بحسن التنسيق والترتيب. ومن الفخر أن يتحدث المرء عن السيد جمال الدين ما وسعه الحديث. فالتحدث عن تاريخ هذا الفيلسوف الحكيم يشرح الصدر، ويغمر النفس بالفرح والإعجاب. ولعلى أستطيع أن أرسم هنا صورة مصغرة تعطى لقراء هذا الموجز فكرة عن حكيم الشرق، توضح لنا بعض ما كان عليه من الصفات النبيلة والأغراض الحكيمة.

فلجمال الدين أثره البين فى نهوض الشرق، وتطلعه إلى الحرية، فقد ظل الشرق زمنًا طويلاً يرزح تحت نير العبودية، ويرسف فى أغلال الاستعمار، فلما جاء (السيد جمال) نفخ فيه روح اليقظة وأهاب بالأمم الإسلامية أن تطرح ذلك الجمود الفكرى، وتلك الأوهام التى ليست من الإسلام فى شىء، والتى كانت سبباً فى تأخر المسلمين فكان شأن جمال الدين فى الناحية الدينية مثل شأن «مارتن لوثر» فى الديانات المسيحية، وكان شأنه فى الناحية الفكرية كشأن «جان جاك روسو» وغيره من فلاسفة الفكر، وكان شأنه فى السياسة وتحرير البلاد من يد الغاصب مثل شأن «واشنطن» محرر أمريكا، و«مازينى» محرر إيطاليا، وغيرهما من رجال السياسة.

وبالجملة كان لجمال الدين فى كل ناحية من نواحى الإصلاح والتجديد أثر ظاهر وفضل لا ينكر.

فهو زعيم إسلامى بعثه الله ليجدد للإسلام حياته التى كانت زاخرة

فى عهوده الأولى، ويكون هذا أصدق شاهد على قول النبى ﷺ : «**إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**».

فقد كان أول المجددين فى القرن التاسع عشر: الحكيم القدير، والمصلح العظيم، والمجاهد الكبير، والثائر الخطير جمال الدين سيد النابغين، وأمير الخطابة والبيان، فيلسوف الإسلام، وآية الحق القاهرة، وحجة الشرق الناهضة، وكوكب الإصلاح الذى ظهر ساطعًا فى آفاق الشرق بعد أن كان فى ظلام حالك، وقد شهد له كثير من المنصفين من الكتاب الغربيين، فهذا (هنرى روشفور) الكاتب الفرنسى الشهير يقول فى كتابه «مجريات حياتى»:

«السيد جمال الدين من سلالة النبى والمعدود هو أيضًا أنه أشبه بنبى.. ثم قال: إننى شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التى أجدها تربطنى بكل داعٍ إلى ثورة أو مقاومٍ لسلطة»!

المؤلف



مولده

«محمد جمال الدين» بن السيد «صفتر» ولد سنة ١٢٥٤هـ سنة ١٨٣٨م وقد تضاربت الروايات، واختلف المؤرخون فى منبته ومسقط رأسه.

فمن قائل : إنه فارسى من إيران ولد بقرية «همذان» وإنما رحل إلى الأفغان وانتسب إليها ليظهر بمظهر السنى لا الشيعى، ويتخلص من رقابة الحكومة الإيرانية لرعاياها فى الخارج، ولقد تمسك الإيرانيون بهذا، وحدثنى العالم الكبير الأستاذ «عبدالكريم الزنجانى» ككبير رجال الشيعة - حينما زار مصر فى عام ١٩٣٧م - بهذا وضمنى مجلس من علية القوم مع «مرزا مهدى رفيع مشكى» وتحادثنا عن سيرة جمال ثم جرَّنا الحديث إلى بلدته التى ولد فيها فاثبت لى أنه إيرانى من «همذان» وأطلعنى على بعض رسائل من أقارب السيد يثبتون فيها أنه إيرانى.

والكثير من كُتَّاب التاريخ والأدباء الذين كتبوا عن جمال الدين ذهبوا إلى أنه أفغانى من قرية «أسعد آباد» التابعة لمركز كنر من أعمال «كابل» عاصمة الأفغان، وهذه هى الرواية التى اعتمدها تلميذه وشريكه فى النفى والاضطهاد الأستاذ الإمام (محمد عبده) فى صدر رسالة (الرد على الدهريين)، وقد ذكر أمير البيان «شكيب أرسلان» فى (حاضر العالم الإسلامى) أنه لقى فى المدينة قبل الحرب العالمية بأشهر أحد ولاة أفغانستان (السيد حسين) من سادات «كنر» المشار إليهم بالبنان وعلمت

منه أن السيد جمال الدين منهم، كما أنى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الأفغانية وسفرائها الذين جمعتنا بهم المقادير فى أوروبا.

ومن العجيب أن يختلف المؤرخون فى مولده ومسقط رأسه مع عظمته وعلو شأنه، يقول المستر «بلنت» فى (كتابه التاريخ السرى) ص ٧٧:

«السيد جمال الدين الأفغانى» لم تتجاوز تجاوبيه العالمية قبل حضوره إلى مصر دائرة آسيا الوسطى، وهو أفغانى المولد، وتلقى تربيته الدينية فى «بخارى».

ويقول «شارلز آدمز» فى كتابه الإسلام والتجديد:

«ولد السيد جمال الدين فى «أسعد آباد» بالقرب من (كابل) بأفغانستان».

ويقول «جورجى زيدان» فى كتابه (مشاهير الشرق) جـ ٢ ص ٥٢:

«السيد جمال الدين (بن السيد صفتر) ولد ببيت شرف وعلم بقرية «أسعد آباد» من قرى كنر من أعمال كابل ببلاد الأفغان».

ويقول شكيب أرسلان فى (حاضر العالم الإسلامى) جـ ١ ص ١٩٩:

«هل جمال الدين الأفغانى مولود فى أفغانستان؟ أم فارسى مولود فى همذان كما ذهب بعضهم» ورجح أنه أفغانى.

ويقول عبدالرحمن الرافعى فى (تاريخ الحركة القومية عصر إسماعيل) جـ ٢:

«ولد المترجم فى أسعد آباد إحدى القرى التابعة لكنر من أعمال كابل عاصمة الأفغان».

ويقول السيد رشيد رضا فى كتابه (تاريخ الإمام) جـ ١ ص ٢٧:

«ولد السيد جمال الدين فى قرية أسعد آباد من قرى كنر وانتقل بانتقال أبيه إلى مدينة كابل».

ويقول محمد عبده فى صدر رسالة (الرد على الدهريين):

«السيد جمال الدين من بيت عظيم فى بلاد الأفغان، وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم فى خطة كنر من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام».

ويقول براون فى كتابه (الثورة الفارسية) ص ٤٢٣:

«إن جمال الدين أراد أن يعرف أنه أفغانى ليسهل حشره فى زمرة السنيين من المسلمين وليتخلى عن الحماية الفارسية التى كان يشك فى قيمتها».

والرواية الفارسية تذهب إلى أنه ولد فى قرية بهذا الاسم «أسعد آباد» بالقرب من همذان فى «إيران» والسبب فى تفضيله الانتساب إلى أفغانستان لا يمكن الخوض فيه إلا بطريق الحدس.

ويقول «مصطفى عبدالرازق» فى صدر العروة الوثقى:

هل جمال ولد فى «أسعد آباد» من قرى «كنر» من أعمال «كابل» من بيت عظيم فى بلاد الأفغان؟ أم هو قد ولد فى أسعد آباد قرب همذان من أعمال فارس، وتعلم فى مدينة قزوين ومدينة طهران ثم سافر إلى الأفغان وليس أفغانى الجنس كما يزعم أهل السنة – أم أن والده من أهالى «مازندران» إحدى ولايات إيران وكان ضابطًا فى الجيش الإيرانى أوفدته حكومته إلى بلاد الأفغان لمهمة. فطابت له السكنى هناك وتزوج وولد له جمال الدين أو ولد له فى إيران وحمل معه صغيرًا؟.

والذى يبدو لى فى منشأ هذا الخلاف أن الارتباط الوثيق بين الأمتين الإيرانية والأفغانية، والتجاور الذى يساعد على تبادل المصالح، ارتباط الأسر بعضها ببعض هو الذى جعل المؤرخين يختلفون فى مسقط رأس السيد جمال الدين، وهم متضافرون على أن السيد جمال الدين من أسرة عربية ينتهى نسبها إلى سلالة النبى الكريم ﷺ.

كما أني أعتقد أنه أفغاني من «أسعد آباد» وأن له صلة نسب بالإيرانيين مما جعل المؤرخين يختلفون فيه، وإليك ما قاله السيد جمال الدين نفسه في كتابه «تتمة البيان في تاريخ الأفغان»:

«الحق أن هذه الأمة من أصل إيراني وأن لسانها مأخوذ من لسان «زوندواستا» وهو اللسان الفارسي القديم وله مشابهة تامة بالفارسية المستعملة الآن، وأن متأخري المؤرخين «كفرنسيس لوفرمان» وغيره يؤيدون هذا الرأي.

على أنه من المسلَّم به أن البلاد تتهافت على ضم عظيم لها مستندة على أقل صلة ليكون لها من الفخار والشهرة ما يجعلها تعتز به على سائر الأقطار.

ومهما يكن فإن تاريخ جمال الدين قبل أن يأتي مصر يكاد يكون غامضًا إلا ما رواه جمال الدين عن نفسه، أو ما تلقفته الآذان من أهل فارس وأفغان. وذلك لأن الشرقيين في عهد ركود النهضة لم يعنوا بتدوين تاريخ عظمائهم، ولم يقدروا لهذا العمل قدره ولكن صفحاته من يوم أن وطئت قدماه أرض مصر بينة ظاهرة لا غموض فيها ولا خفاء، ولا يعنينا بعد هذا أن يكون السيد من إيران أو من أفغانستان لأن هذا الأمر لا أثر له في حياة الحكيم، وليست هناك نتائج تتوقف على إثباته، كما أن جهاده وعمله في الحياة بدأ بعد أن غادر بلاده واتجه إلى مصر، فنحن نوافق الإيرانيين على أنه إيراني ونوافق الأفغانيين على أنه أفغاني ونوافق كل من يخطبه لنفسه بأنه منه فهو من بلاد الإسلام، فالإسلام وطنه وهذه دعوته التي قضى حياته فيها.

نشأته

نشأ السيد جمال الدين من أبوين فقيرين. إلا أنهما كانا ينتميان إلى أسرة من أشهر البيوت فى شرف النسب وعلو الحسب حيث يتصل نسبهما (بالترمذى) المحدث ويرتقى إلى (الحسين بن على) رضى الله عنهما، فهو من الأشراف المنتمين إلى الدوحة النبوية.

نشأ فى عاصمة أمة عزيزة النفس، شديدة البأس، لم تذل لحاكم ولا لأجنبى، وهى تعظم آل البيت النبوى وتتعلق به.. نشأ فى حكومة كانت ذا مقام كبير فى بيت إمارتها، وركنًا من أركان الزعامة لأحد الوارثين للحكم فيها وهو الأمير «محمد أعظم».

وقد كان لأسرته مقام عظيم فى السياسة والسيادة إذ استقلت بالإمارة على جزء من البلاد مدة طويلة حتى عهد «دوست محمد خان» أمير الأفغان الذى انتزع منها الإمارة وأمر بنقل أسرة جمال الدين إلى كابل، وكان جمال حينئذ فى الثامنة من عمره فأخذ يتلقى العلم فى مدرسة محلية، وظهرت عليه أيام تلمذته مخايل الذكاء ونقاء الفطرة وبداهة القريحة فبرع فى علوم اللغة العربية، وفى التاريخ العام والخاص، وتفوق فى الكتابة والإنشاء العربى وعلوم الشريعة والفلسفة والرياضة والمنطق ونظريات الطب والتشريح.

وليس بغريب أن نقول: إنه برز فى الفنون الحربية فقد قال عنه المستر «جورج كوتشى» :

«إن جمال الدين قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه النادر، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون العسكرية».

ولم يقتنع الحكيم بكل هذا بل امتدت رغبته فى العلم والبحث حتى غادر الأفغان ذاهبًا إلى الهند مستهينًا بكل ما يلاقى من عناء ومشاق. وقد مكث بالهند سنة وبضعة أشهر أضاف إلى علومه ومعارفه ما درسه من العلوم على الطريقة الأوروبية، وتعلم الإنجليزية - كما تعلم الفارسية والتركية من قبل - وقد تلقى السيد جمال الدين الفلسفة العربية القديمة والحديثة حتى استطاع أن يكون له رأى خاص فى العلوم العقلية وعلم النفس، والأخلاق، وعلم الوجود والتكوين، ولقد ترعرع جمال الدين وتكون بين أحضان كتب الغزالى وابن قتيبة، ويظهر ذلك لمن يطالع كتاباته فى العروة الوثقى والرد على الدهريين.

على أن السيد جمال كان ينتهز الفرص التى تمكنه من الانتقال إلى مدن الهند وربوعها متعرفًا أحوالها، مستطلعًا أخبارها، إذ كان يمل البقاء فى مكان واحد لأنه بطبعه ميال إلى الرحلات والأسفار، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات، ودرس أخلاق الشعوب.

وبدا لجمال الدين وهو فى الهند أن يذهب إلى الأقطار العربية ثم إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج فرحل إليها متنقلاً من بلد إلى آخر فى الجزيرة العربية ليتعرف أحوال البلاد وعادات أهلها، ويكشف عن أخلاقهم، مما أكسبه خبرة فيما بعد بأحوال الأمة العربية، وظل فى تنقله وترحاله حتى وصل إلى مكة سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧م) بعد سنة من قيامه من بلاد الهند.

وقد كانت فكرة الجامعة الإسلامية مختمرة فى نفسه، ولم ير موضعًا خصبًا لإبدائها سوى بيت الله المقدس حيث تجتمع الألوف العديدة من مسلمى الأقطار كافة، فوجد بثاقب فكره أن هذا أكبر

مؤتمر إسلامي ممثل تمام التمثيل يستطيع أن يجهر أمامه بدعوته ليكون لها صدى في قلوب المسلمين، فلا يلبث أن يظهر أثرها سريعًا في الأقطار الإسلامية جميعها، فلم يبرح بلاد الحجاز قبل أن يضع لدعوته غرسًا طيبًا، وينقلها إلى طورها العملي بإنشاء جمعية يمثل فيها كل قطر إسلامي تسمى جمعية «أم القرى» كانت أشبه ببرلمان إسلامي كبير، وقد أصدرت الجمعية مجلة باسمها، وقد كان لهذه الجمعية فيما بعد شأنها وخطرها، وكانت أول قنبلة يضعها جمال الدين في وجه بلاد الغرب الجشعة.

وبعد أن أدى السيد جمال فريضة الحج وبعد أن درس بلاد العرب وبلاد الهند دراسة وافية، وبعد أن تعرف أخلاق وعادات ونظم تلك البلاد، وبعد أن ترك أثرًا خالدًا في بلاد الحجاز - عاد إلى أفغانستان مكان إنباته، وموضع غرسه.. عاد إليها عالمًا جليلاً، فاختطفته حكومته وضمته إلى سلكها، وكان أمير البلاد «دوست محمد خان» ولما أعد الأمير عدته وأخرج جنوده لمحاصرة (هراه) أخذ السيد جمال معه في معيته.

حاصر الأمير (هراه) ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه، ولازمه السيد جمال مدة الحصار إلى أن توفي الأمير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصار زمنًا طويلاً، وتقلد الإمارة ولي عهدها «شير علي خان».

ولقد وصل السيد جمال إلى منصب كبير الوزراء في عهد «محمد أعظم» وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين حينئذ، وارتفعت منزلته في نفس الأمير، وعظمت ثقته به، فكان يلجأ إليه في العظائم وما دونها على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم، وكادت تخلص حكومة الأفغان «لمحمد أعظم»

بتدبير السيد جمال الدين لولا إسناد الأمير شئون الحكم إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة.

لم يرق إنجلترا هذا النظام الذى صار عليه محمد أعظم، وهذه السلطة الواسعة التى استخدمها فى ترقية جمال الدين وقد رأت فيه ما يزعج الاستعمار من النفور منه، وتبينت فيه روحًا حرة وثابة، فعملت - كعادتها - على تعكير الجو بدس الدسائس ونشر الدعايات ضد «محمد أعظم». ولم تكتف بهذا بل حرضت «شير على» على محاربة أخيه، وقد أمدته فعلا بالميرة والذخيرة، والمال والسلاح حتى انتصر، وفر «محمد أعظم» إلى إيران ومات بعد أشهر فى (نيسابور).

وبقى السيد جمال الدين فى كابل يكافح الدسائس ويكتشف المؤامرات التى تدبر لاغتياله، وكان عظيمًا فى محنته، ثابتًا أمام العواصف التى تزعزع صم الجبال، وتلك وايم الله لبارجة من بوارج القوة، وظاهرة من ظواهر النفس العظيمة.

نعم لئن كان السيد جمال الدين قد لاقى الأهوال فى هذه الفترة التى حمى فيها وطيس الحرب وظهرت فيها مكايد العدو فإنه قد استفاد من هذه الحرب الخبرة الفنية والشجاعة الجندية فضلاً عن كشفه سياسة إنجلترا وأساليب الدس والتفريق التى عرفت بها. ولقد أثارت تلك الأساليب السياسية التى كانت موجهة ضد الحريات ما كان يكنه جمال الدين فى نفسه من العداء والبغض للاستعمار ودوله، فأخذ يبث فى الشعب الأفغانى مبادئ الوطنية وروح الحرية، مما ألب عليه الأمير «شير على» الذى كان يضمر له العداوة من حين تولى الإمارة إلا أنه كان لا يحب الظهور بها لمكانة جمال الدين فى نفوس الشعب ومخافة هياج العامة ضده فاحتال للغدر به.

لما شعر جمال الدين بما يدبر له فى الخفاء استأذن الأمير فى الخروج من البلاد متظاهرًا أنه يريد الحج فأذن له.

فترك السيد جمال الدين البلاد «لشير على» وأعوانه الإنجليز ذاهبًا إلى الهند - مهد ثقافته وعلمه - للمرة الثانية بعد هزيمة «محمد أعظم» بثلاثة أشهر سنة ١٢٨٥هـ (أواخر سنة ١٨٦٩م» فقوبل من الحكومة والأهالى بالحفاوة والإكرام، إلا أن الحكومة وجدت فيه نفسًا متمردة على الاستعمار ودوله بما يبثه فى النفوس من الدعوة إلى الحرية.

وما كان خافيًا على الإنجليز عداء السيد جمال لسياستهم وما ينتج عن بقائه فى الهند من إثارة النفوس، وخاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن إثر ثورة سنة ١٨٥٧م ولم يكن يخفى عليها أن فى دروسه واجتماعاته دافعًا قويًا لثورات، ومحركًا عظيمًا لما كمن فى النفوس.

لذا منعته الحكومة من دروس الدين والسياسة، ووضعت على اجتماعاته رقابة، واستبدت به، فحفت به الجواسيس من كل جانب.

استاء جمال الدين. وتألم من تلك المطاردات.

وهل يؤلم أكثر من أن يستبد بك من يسعى للعسف والظلم، وأنت تعمل للإصلاح والعدالة؟! ولكن هذه هى سنة الله فى خلقه.

ولهذا تجد أن دعاة الاستعمار يطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره، وهذا سبب فى أن كل الأنبياء عليهم السلام وأكثر العلماء والأعلام والأدباء تقلبوا فى البلاد وماتوا غرباء.

جال هذا بخاطر جمال وحاول أن يتغلب على صعابه ويخلص لبث دعوته، ولكن قوة المستبد تقف فى وجهه لتحول بينه وبين أمنيته.

ولم يمض على مقام جمال الدين فى الهند أكثر من شهر حتى ضاقت الحكومة به ذرعا فأوفدت إليه مندوبًا وكان عنده أكابر العلماء والعظماء، فخاطب جمال الدين قائلاً: إن الحكومة الهندية كانت تساهلت معكم للإقامة نحو الشهرين، ولكنها ارتأت أن حالة البلاد لا تساعد على بقائكم أكثر مما مكثتم، فأراد الحاضرون أن يحتجوا على هذا الإنذار فمنعهم جمال الدين، وقال: «إننى ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى، ولا أنا على استعداد اليوم لأحدث شغبًا عليها، ولا أنتقد شيئًا من أعمالها، ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى، ومصادرتها لزائرين هم أضعف منى يسجل عليها وهن عزيمتها وضعف شوكتها وقلة عدلها، وعدم أمنها من حكمها، وأنها فى حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة الواسعة أضعف بكثير من شعوبها» ثم التفت إلى زائريه وقال: «يا أهل الهند، وعزة الحق وسر العدل لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين «ذبابًا» مع حاميتكم بريطانيا ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملوا سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف؛ لو كنتم أنتم مئات الملايين - كما قلت - «ذبابًا»، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا ويجعل فى آذن كبيرهم وقرًا، ولو مسخكم الله فجعل كلاً منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا لجررتموها إلى قاعه وعدتم إلى هندكم أحرارًا.

فما أتم جمال كلامه حتى آذرف الحاضرون الدموع فقال إذ ذاك بصوت مرتفع: «**اعلموا أن البكاء للنساء، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم**» ونهض مسرعًا مع رجل الحكومة لكى يذهب معه حيث شاء فقال له: مهلاً الآن فموعد سفرك غدًا. قال جمال الدين : إلى أين تريدون أن أذهب؟ فقال: إلى

حيث تشاء بعد أن تبارح الهند. ومع هذا فقد أبعدوه فى الصباح على إحدى بواخرهم إلى السويس كى لا يخرج من نطاق سيطرة الإنجليز ولا يمكنه التحرر من قيودهم.

وصلت الباخرة التى نزل بها السيد جمال إلى السويس فى أوائل سنة ١٨٧٠م أواخر سنة ١٢٨٦هـ ومنها سافر إلى القاهرة ولم يمكث بها إلا أربعين يومًا استطاع فيها - بقدرته العجيبة وذكائه المفرط - أن يتعرف الكثير من عادات المصريين وأخلاقهم وسياسة بلادهم الداخلية، وقد تردد على الجامع الأزهر خلال هذه المدة، وتقرب إليه كثير من الأساتذة والطلاب، واتصل به جمع غفير من علية القوم وأصحاب الكلمة.

ولقد ذكر الإمام محمد عبده لتلميذه السيد رشيد رضا أن الذى أخبره بقدوم السيد جمال هو أحد طلاب العلم السوريين فى رواق الشوام قال: إنه قدم مصر عالم أفغانى عظيم وهو يقيم فى خان الخليلى، فسررت لذلك وأخبرت الشيخ حسن الطويل ودعوته إلى زيارته معى. فألفيناه يتعشى هو وخادمه أبو تراب، فدعانا إلى الأكل معهما فاعتذرنا، فطفق يسألنا عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لنا، فكان هذا مما ملأ قلبى إعجابًا وشغفنى به حبًا.

وكان فى نية السيد جمال السفر إلى الحجاز والإقامة به ليرى غرسه ويباشر عمل جمعية (أم القرى) التى أنشأها عند زيارته الأولى للحجاز، ويتمتع بذلك الجو الخالى من دنس الأجنبى، وينعم بالحرية التامة فى بلاد أمنت غارات المستعمرين وطمع الطامعين، واطمأنت على نفسها من هجمات الأعداء بما وهبها الله من الحصون الطبيعية التى تتحسر عنها فلول الجشعين، فضلاً عما كان يراه فى هذه البلاد من نمو دعوته وذيوعها بين المسلمين عامة فى هذا البيت العتيق المقدس.

وبينما هو يعد عدته للسفر إلى الحجاز إذ بالخليفة يستدعيه إلى الآستانة لما وصل إلى مسامعه من مكانة السيد وعلو شأنه بين المسلمين، ولما عرف عنه من الميل إلى توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم بتأسيسه (جمعية أم القرى) بمكة، فلم يسع السيد جمال الدين إلا أن يترك ما قدَّره جانبًا ويتبع ما قدَّرته له الأقدار، وما خطته له القوة العلية، وأن يذعن لإرادة السلطان ويجيب أمره..

سافر السيد جمال إلى الآستانة سنة ١٢٨٧هـ سنة «١٨٧٠م» واستقبلته الحكومة استقبالاً حسنًا، وقد أكرم السلطان عبدالعزيز وفادته، ورحب به الصدر الأعظم «عالى باشا» وسائر الوزراء والعظماء، والتف حوله العلماء والأدباء، ونزل منهم منزلة عالية، وتناقلوا الثناء عليه، ودعاه السلطان إلى مجلسه. فلما مثل بين يديه - وكان السيد معتزًا بأفغانيته وزيه - قابله السلطان بالبشاشة، وقربه إليه، وأخذ يستفسر منه عن أحوال الأفغان وسائر البلاد التى رحل إليها، ويستطلع رأيه الدينى والسياسى. فكانت إجابات السيد محكمة رصينة تدل على عقل جبار، ونفس أبية، وإخلاص للإسلام والمسلمين، وقد دعاه السلطان مرات عديدة كان السيد فى جميعها موضع إعجاب السلطان وثنائه.

ثم رأى الخليفة أن من الحكمة الانتفاع بمواهب السيد فى أعماله الرسمية فأمر بتعيينه عضوًا فى مجلس المعارف بعد ستة أشهر من وصوله إلى الآستانة.

وقد ظهر السيد فى وظيفته هذه - وهى أول وظيفة رسمية له خارج بلاده - بتعاليم جديدة وإصلاحات للمناهج مفيدة، ترضى الله والوطن وإن أغضبت الخائنين للأمة، والمنافقين الذين يعيشون بلا ضمائر. وقد تزعم هؤلاء «حسن أفندى فهمى» شيخ إسلام تركيا فى ذلك الوقت، الذى كان يرى فى تعاليم جمال الدين مساسًا برزقه وتحديدًا لسلطته. فأضمر لجمال

الدين السوء، وتربص به الدوائر للنكاية به، والتقليل من شأنه. فكان لا يظهر رأى للسيد جمال الدين فى الصحف وفى الاجتماعات حتى ينقده شيخ الإسلام نقداً غير برىء يبدو فى طواياه المكر والحقد والعداوة والبغضاء.

وفى رمضان سنة ١٢٨٧هـ «ديسمبر سنة ١٨٧٠م» تقدم إلى السيد جمال الدين «تحسين أفندى» مدير دار الفنون راجيًا منه أن يلقى خطابًا للحث على الصناعات، فاعتذر السيد عن إجابة طلبه محتجًا بضعفه فى اللغة التركية. وبعد إلحاح شديد أجاب السيد دعوته، وألقى محاضرة قيمة، وصفها الإمام محمد عبده فى صدر رسالته (الرد على الدهريين) إذ يقول:

«لما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس إلى دار الفنون، واحتفل جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد، وحضر فى الجمع معظم الوزراء، وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان قد أعده وأرسل «حسن أفندى فهمى» أشعة نظره فى تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به وما كان يجدها لو طلب حقًا.

كان الخطاب فى تشبيه المعيشة الإنسانية ببدن حى، وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدى من المنفعة فى المعيشة ما يؤديه العضو فى البدن، فشبه الملك مثلاً بالمخ الذى هو مركز التدبير والإرادة، والحدادة بالعضد، والزراعة بالكبد، والملاحة بالرجلين. ومضى فى سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف، ثم قال: هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية، ولا حياة لجسم إلا بروح، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة، ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب، يختص اللّه بها من يشاء من عباده واللّه أعلم حيث يجعل رسالته. أما الحكمة فهى تكتسب بالفكر والنظر فى

المعلومات، وبأن النبى معصوم من الخطأ، والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه، وأن أحكام النبوات آتية على ما فى علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فالأخذ بها من فروض الإيمان، أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها إلا من باب ما هو أولى والأفضل على شريطة ألا تخالف الشرع الإلهى.

هذا ما ذكره متعلقًا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية إلا أن «حسن أفندى فهمى» أقام من الحق باطلاً ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة فى خطاب يتعلق بالصناعة.

نعم لم يرق هذا الخطاب شيخ الإسلام لما كان فى نفسه من الحقد على جمال الدين فرماه بالزيغ فى العقيدة، وأوعز إلى بعض الصحف بذكر ذلك، وألب عليه الوعاظ فى المساجد.

فانبرى السيد جمال الدين للدفاع عن نفسه، وطلب محاكمة شيخ الإسلام. فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون ويغضى على الكريهة، وطول الزمان كفيل باضمحلال الإشاعة وضعف أثرها، فلم يقبل ولجَّ فى طلب المخاصمة وقامت الصحف الحرة بدورها مؤيدة لجمال الدين منتصرة لرأيه، وكانت حرباً قلمية ثارت عجاجتها بين شعب الأستانة، ولكن الحكومة انحازت لشيخها وانتهت بصدور الأمر إلى جمال الدين بالرحيل عن تركيا حتى تسكن الخواطر وتهدأ النفوس وأشار عليه محبوه بالعودة إلى مصر فعاد إليها فى ظل هذا الاضطهاد الدينى المفتعل، ولكن بعد أن بذر بذور الإصلاح التى أثمرت بعد قليل من الزمن. إذ سرعان ما قامت نهضة إصلاحية عامة أجمع فيها العظماء على المطالبة بالإصلاح الدينى.

وهذا هو الجزء الدينى فى الحركة السياسية التى قدر أن تنتهى بالثورة التى قام بهـا مـدحت باشـا سنة ١٨٧١م وكـان من أثرها تلك النهضة التى شملت تركيا وجعلتها فى مصاف الدول الراقية.

وفى يوم رحيله من الآستانة مبعداً ذهب وفد من العلماء والأصدقاء لتوديعه فاشتط أحدهم غضبًا فى خطابه واحتجاجه على شيخ الإسلام بما مس كرامة الدين فوقف عند ذلك السيد جمـ ـن غاضبا وقال: «ليس خطأ أراه أكبر من مس كرامة الدين لمجرد عمل يأتيه فرد من تابعى ذلك الدين، وأعتقد أن الهيئة البشرية لا يمكنها الاستغناء عن السلطتين الزمنية والروحية. نعم يمكن أن يطرأ على إحداهما خلل ليس فى أصل الوضع. فيجب العمل على إصلاح هذا الخلل والوقوف بوجه من أخل وإرغامه على الرجوع إلى الأصل، ثم قال: السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها إنما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر وصيانة الحقوق. أما إذا أودعت هذه السلطة بيد مَنْ قال أعوانه مشيئة الملك قانون المملكة فإنه يجب على الأمة وقوفها تجاههم لأن إرادة الشعب هى فى الحق قانون ذلك الشعب.. ثم قال: وكذلك القول فى السلطة الروحية، وأعنى بها ما لكل دين من النفوذ المعنوى على من يدينون به.. فإذا سار الدين فى غايته الشريفة حمدته السلطة الزمنية. وإذا سارت السلطة الزمنية فى الغاية المقصودة منها وهى العدل المطلق فالسلطة الروحية حمدتها وشكرتها ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا إذا خرجتا عن المحور اللازم لها».

وكانت هذه آخر كلمة قالها السيد جمال وفارق على أثرها الآستانة فحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر.

جمال الدين فى مصر:

سبق أن ذكرنا أن جمال الدين جاء مصر منفيًا عقب اضطهاده السياسى من إنجلترا فى الهند، والآن يدخل جمال الدين مصر للمرة الثانية منفيًا أيضًا وذلك فى أول محرم سنة ١٢٨٨هـ (٢٢ من مارس سنة ١٨٧١م) إثر اضطهاده الدينى من رجال الدين فى تركيا.

ومن الطبعى أن يكـ لهذا الاضطهاد أثره فى نفس جمال، وأن يترك فى قلبه نارا متأججة بالغضب والسخط، والثورة على الجمود الفكرى والتأخر العقلى، فجاء السيد إلى مصر مفرجا عن نفسه من ذلك العناء الذى لحقه فى حياته من جراء دعوته إلى الإصلاح، وتلقين الناس مبادئ الحرية.

فـفى الأفغان أبت نفسه الحياة فى جو ملىء بالدس والمكايد، وفى الهند وقفت له إنجلترا بالمرصاد تراقب حركاته وترسل حوله العيون والجواسيس ولم تلبث أن نفته إلى مصر.. وفى الأستانة يجد من رجال الدين الأعداء الألداء!

نعم جاء السيد جمال إلى مصر عساه أن يحظى بقسط من الراحة والاستقرار، ويظفر بالهدوء وطمأنينة البال، ولكن أنَّى ذلك لرجل مثل جمال خلقت نفسه للكفاح والنضال والجهاد فى ترقية الإنسانية! وكيف له أن يقيم بمصر مطمئن الخاطر وعلى مرأى ومسمع من تلك المظالم الفادحة وذلك الانحطاط العام فى الفكر والسياسة والدين! فعز عليه أن يكون بمصر وهى على هذه الحالة خصوصًا وأن المصريين فيهم الاستعداد للإصلاح، وفى نفوسهم التطلع إلى الحرية والحياة السعيدة..

حضر السيد إلى مصر ولم يكن فى عزمه الإقامة بها طويلاً.. غير أن ما وجده من أهلها وحكومتها من الحفاوة والإكرام حبب إليه البقاء فيها، ورغب إليه العمل فوق أرضها وتحت سمائها، إذ لم يكن يتوهم أن

«رياض باشا» وزير «إسماعيل» فى ذلك الوقت يحتفى بالسيد هذا الاحتفاء ويرحب به ذلك الترحيب، ولم يكن ينتظر أن حكومة إسماعيل ترعاه هذه الرعاية وتجرى عليه مرتبًا قدره مائة وعشرون جنيهًا (١٢٠ج) فى السنة مكافأة له وتقديرًا لفضله..

نعم لم يكن ينتظر هذا ولا أقل منه فى ظل حكومة استبدادية تعرف أن لجمال آراء لا تتفق مع استبدادها ومبادئ لا ترغب فيها..

ما كان ينتظر أن يتقبله الخديوى وهو يعرف ما لجمال الدين من خطر على سياسته، ويعرف ما لدروسه الدينية ودعوته الوطنية من أثر كبير فى نفوس شعبه..

وهنا موضع للتساؤل عما حمل الخديوى إسماعيل على استمالة الحكيم الأفغانى للإقامة فى مصر وإكرام مثواه، فقد يبدو هذا العمل غريبًا لأن لجمال الدين ماضيًا سياسيًا، ومجموعة أخلاق ومبادئ لا يرغب فيها الملوك المستبدون، ولم يكن السيد من أهل الملق والادهان فينال عطفهم ورعايتهم، ويجروا عليه الأرزاق بلا مقابل. ولكن الأمر لا يعسر فهمه إذا عرفنا أن شخصية جمال الدين العلمية، وشهرته فى الفلسفة أقوى ظهورًا - وخاصة فى ذلك الحين - من شخصيته السياسية.

أما آراء الحكيم السياسية وكراهيته للاستبداد ونزعته الحرة فلم يكن مثل إسماعيل يخشاها أو يحسب لها حسابًا كبيرًا لأنه فى ذلك الحين سنة ١٨٧١م كان قد بلغ أوج سلطته، فكان يحكم البلاد حكمًا مطلقًا يأمر وينهى ويتصرف فى أقدار البلاد ومصاير أهلها دون رقيب أو حسيب، وكان مجلس شورى النواب آلة مطواعة فى يده، والصحافة فى بدء عهدها تكيل له عبارات المدح وتصوغ له عقود الثناء، ولم يكن سلطانه قد استهدف بعد للتدخل الأجنبى لأن هذا التدخل لم يقم إلا فى

سنة ١٨٧٥م، فليس ثمة ما يخشى منه إسماعيل على سلطته المطلقة من الناحيـة الداخليـة أوالخـارجيـة حين رغب إلى حكيم الشـرق الإقـامـة والتـدريس فى مصـر، وقـد بـدأت النهضـة التى ظهـرت على يد السـيد علميـة أدبيـة، ولم تتطور إلى النـاحيـة السـيـاسـيـة إلا حوالى سنة ١٨٧٦م على أنهـا فى تطورهـا السـيـاسـى لم تتـجـه ضـد إسـمـاعـيل بالذات، بل اتجهت رأسًا ضد التدخل الأجنبى..

وثمـة اعتبـار آخـر لا يفوتنا الإلماح إليـه. ذلك أن جمـال الدين قد بارح الآسـتـانة إذ لم يجـد فيهـا جوًا صـالحًـا للنهضـة العلمـيـة والفكرية، وقصـد إلى مصـر وقد سـبقـتـه إليها أنباؤه، ومـا لقـيه فى دار الخـلافـة من العنت والاضطهـاد، وكـان إسـمـاعيل ينافس حكومـة الآسـتـانة فى المكانة والنفـوذ السياسى وينظر إليهـا بعين الزراية، ولا يرضى لمصـر أن تكون تابعـة لتركيا ولا أن يكون هو تابعًا للسلطان العثمـانى. وليس خـافيًا مـا كـان يبـذله من المسـاعـى للانفـصـال عـن تركيـا فـى ذلك الحين، وظهـوره بمظهـر العـاهـل المسـتـقـل فى مـعـرض باريس العـام سنـة ١٨٦٩م وعـزمـه على إعـلان استقلال مصر التام لولا العقبات السياسية التى اعترضته، ولا يعزب عن الذهن مـا كـان بين الخديوى والسلطان مـن مظاهـر الفتـور والجـفـاء التى كادت تقطع الروابط بينهما..

فى هذا الجو هـبط جمال الدين مصـر مبعدًا من الأستانة، واستطاع أن ينشـر رسالته فى مصـر بوسـاطة تلاميذه الذين كانوا يفـدون إلى منزله من الأزهـر وغيره، وقد بلغ عددهم نحو الثلاثمائة، وكانوا من صفوة أبناء الأمـة ونبـغـائهـا، ولم يلبث أن كـان له أنصـار ومحـبـون يتعشـقـون دروسـه ويحبون الاستماع إليه فى حديثه، ويغبطونه على ما وهبه الله من رجاحة العقل وحصافة الرأى، ويلازمونه فى الرواح والغدو، وكانوا له لسـان مدح وثناء عند الناس أجمعين.

والذى ظهر لنا فى بادئ الأمر أن الشيوخ المحافظين لم تجتذبهم مبادئ جمال الدين وتعاليمه الدينية: وإن راقت فى أعينهم مبادؤه السياسية التى عرف بها.

وكانت مبادؤه الدينية مقبولة لدى طبقة المتأثرين بالحضارة الغربية وكان العدد الأكبر من تلامذته من أصحاب المناصب العالية فى القضاء، أو أساتذة المدارس العالية، أو رؤساء المصالح الحكومية.. وإن كان بعضهم أو جلهم قد تعلم فى الأزهر غير أنهم كانوا ممن تلقوا شيئًا من علوم الغرب.

وقد يبدو عجيبًا من أول الأمر أن يكون هؤلاء أكثر تلاميذ السيد، ولكن ينقطع عجبنا إذا ما عرفنا أن للمصريين عذرًا حين ذاك لأنهم كانوا من العنصر المحافظ الذى لا يقبل البحث أو التجديد أو المناقشة فى أصول الدين أو فروعه، وخطة جمال التى كان يسير بها، هى أن يخاطب الدينُ العقلَ مؤيدًا بالأدلة والبراهين ليس معتمدًا على النقل وحده..

غير أن النابهين من الأزهريين لم يلبثوا أن سارعوا إلى جمال مغترفين من بحر علمه بعد أن فهموا أغراضه وأفكاره التى كانت لا تختلف مع الدين فى شىء، فحملوه على تدريس الكتب العلمية فى فنون الكلام، والحكمة النظرية - طبيعية وعقلية - وفى علم الهيئة الفلكية، وعلم التصوف، وعلم أصول الفقه الإسلامى.

وفى عام قدوم السيد جمال الدين إلى القاهرة انتسب سعد زغلول إلى الأزهر ولم يتوان فى الذهاب إلى السيد جمال وإيثار درسه، فتلقى عنه مبادئ الحرية والإصلاح، فاشترك فى حركة الإصلاح التى أثارها السيد جمال بالقسط الذى استطاع أن يقوم به فى أثناء الدرس والطلب. فألف جماعة من إخوانه الطلاب أمثال اللقانى، وأبى خطوة، وعبدالكريم

سلمان، وأديب إسحاق لإصلاح الأزهر، وكتبوا منشورًا وعلقوه فى سواد الليل على أعمدة الأزهر بينوا فيه مواضع الخلل ووسائل العلاج التى تنجع فى إصلاحه.

وفى ذات يوم استكتب السيد جمال تلاميذه موضوعًا عن الحرية فكان سعد أكثر إخوانه إجادة فقال السيد «هذا بغيتى!» وقال:

«مما يدل على أن الحرية ناشئة فى مصر أن يجيد فى الكتابة عنها مثل هذا الناشئ».

بهذا الأسلوب فتح السيد جمال الدين أذهان المصريين إلى البحث والتفكير، وبين لهم طريق الاستنتاج والاستنباط، وكان جمال يسحر سامعيه بعلمه الغزير وحديثه العذب وتعليقه الممتع على الموضوعات المختلفة، ويجود بحكمته على كل من حضر مجلسه.

وهكذا أخذ السيد جمال الدين يواصل تعاليمه، ويبذر بذور العرفان على تلاميذه فى مختلف العلوم والفنون، حتى أنه لما شعر ببعض النهضة الأدبية دفعته الرغبة الشديدة إلى تشجيع تلاميذه على القراءة فى كتب الأدب، ليستقيم أسلوبهم، وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان، ليستطيعوا بعد ذلك أن يكتبوا فى الصحف ما يعن لهم من الأغراض لصالح الأمة وخير الوطن. وبهذا تم لجمال الدين ما كان يرجوه من وجود كتَّاب لا يشق لهم غبار، وعلماء يشار إليهم بالبنان كان فى طليعتهم:

الشيخ محمد عبده، والشيخ عبدالكريم سلمان، وإبراهيم اللقانى، السيد وفا القونى، وسعد زغلول، وعبدالله نديم، وقاسم أمين، وإبراهيم المويلحى، ومحمد المويلحى، وحفنى ناصف، والشيخ بخيت، والشيخ عبدالرحمن قراعة، والهلباوى، وإبراهيم العجمى الصحفى المعروف، والحاج أحمد شفيق، وثلة من أدباء الشام النازلين بمصر مثل: أديب

إسحاق، وسليم النقاش، وسعيد البستانى، وسليم العنجورى، وخليل اليازجى وغيرهم الكثير لا يتسع المقام لذكرهم.

فاندفع مريدوه وحملة علمه يكتبون ويخطبون وينثرون على الملأ ما التقطوه من فوائده، وانتظموه من فرائده، وكان ذلك لسانًا عاليًا لا عهد للناس بأمثاله، وأسلوبًا راقيًا انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله، فأحدث فى الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله، ونفخ فيها روحًا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله، فنشطت همم، واستجدت عزائم، وهبت قوى، وفاضت قرائح.

ولقد قام السيد جمال بحركة سياسية لا تقل شأنًا عما قام به من الحركات العلمية والأدبية، والعلم والسياسة توأمان، قلما نشر العلم فى مكان إلا وهتف بالحرية..

وكانت مصر فى هذه الآونة تجتازها أزمات مالية شديدة. وتسير إلى الهوة السحيقة بسبب التدخل الأجنبى الذى جاء عن طريق الاستدانة من الدول لجعل مصر قطعة من أوروبا، مما سبب ارتباك الدولة واستيلاء الأجانب على مواردها، وبالأحرى مما جعل للإنجليز مسلكًا للتدخل فى شئون مصر والتحكم فيها.

إلا أن هذا العمل وهذه القروض وما يتبعها من تساهل فى شروط القرض، وما استلزمته من التنازل عن الكثير من الحقوق.. كل هذا قد ساء جمال الدين الذى كان من مبدئه رفض أى تدخل أجنبى مهما صغر، فسرعان ما اتجه بتلاميذه إلى الناحية السياسية. ونبههم إلى مضار التدخل الأجنبى والرقابة الأجنبية وبقى وإياهم على يقظة من أعمال الحكومة.

أخذ النفوذ الأجنبى يسيطر على البلاد، وأصبحت الكلمة لهم، وفى

خلال عام ١٨٧٨م زاد مركز السيد جمال الدين خطرا فى البلاد ونظرت له الحكومة والوالى نظرة خوف وحذر. لأنه تدخل فى السياسة وتولى رياسة جمعية الماسون العربية. وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية مثل البارودى وعبدالسلام المويلحى النائب المصرى، وإبراهيم المويلحى. وعلى مظهر، والشاعر الزرقانى. ثم تغيرت لهجة السيد جمال وتضاعفت همته واتسع زمن تدريسه، فبعد أن يقضى بياض نهاره فى داره يخرج متوكئًا على عصاه إلى قهوة «البوستة» وهناك يجلس فى الصدر، ويلتف حوله تلاميذه ومحبوه فيناقشهم فى الأحوال السياسية وما يتطلبه موقف مصر حين ذاك، وما جلبته القروض على البلاد من الخراب والدمار. وما عسى أن تسببه من توسع التدخل الأجنبى.

شرع السيد يقرب العوام إليه ويفسح صدره لهم، بينما كان يقابل الحكام وذوى الكلمة بالشدة والأنفة والعزة. فعرف بشأنه كثير من العامة والخاصة وتقربوا من مجلسه. فأخذ يستعيض بدروس الفلسفة والعلم محاضرات فى السياسة والحرية والوطنية وكان يقول لهم مستنهضًا هممهم ما معناه:

«إنكم معاشر المصريين قد توالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون. وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة.. تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأتراك والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، ويهيض عظامكم بأداة عسفه. وأنتم

كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت. انظروا أهرام مصر، وهياكل منفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوة، وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم، واصحوا من سكرتكم، وانفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، وعيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء..»

فجمعت كلمتهم على الفكرة التى تقدم بها بعض المجتمعين وهى تأليف هيئة منهم تسمى الحزب الوطنى، كما ألفت من بعض النواب وبعض المجتمعين جميعات سرية وغير سرية.

وعلى لسان هذا الحزب، وهذه الجمعيات جرت لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كلمة (مصر للمصريين) التى كانت مبدأ من مبادئهم.

ومازال جمال الدين نشيطًا فى دعوته فهيأ تلاميذه المشتغلين بالسياسة لحب الحرية، وبث فى نفوسهم روح الغيرة والشهامة، وحارب فيهم صفة الذل والمسكنة، وذكرهم بحقوقهم المهضومة، ووطنهم المغتصب، وضميرهم المستعبد، ومالهم المنهوب، وقوميتهم المحتقرة، ودينهم المهجور.. فحرك فيهم عرق الحياة فانفجرت بتعاليمه تلك البراكين الثائرة التى تجلت فى المجالس النيابية وفى الصحف فى ذلك الحين.

على أن السبب الأول فى تحقيق دعوة الحكيم وفلاحها هو ذلك الاستعداد الفطرى الكامن فى نفوس المصريين. فقد لاقت دعوته آذانًا واعية، وعقولاً ناضجة، وروحًا عالية وثابة إلى المجد والرفعة. ولولا رغبة المصريين فى التخلص من يد الأجنبى والنهوض ببلدهم إلى المكان اللائق بها لخمدت دعوة جمال الدين ولما ظهر لها أثر. لمقاومة الإنجليز لدعوته، وحقد بعض العلماء عليه..

ولقد كان طبيعيًا أن يقاوم جمال الدين من إنجلترا لآرائه الحرة التى تتنافى مع سياسة الاستعمار، ونشاطه الفائق، وشجاعته وجرأته التى يصدم بها الإنجليز ويكشف طواياهم ومخبآتهم.

ولقد كان طبيعيًا أيضًا أن يقاوم السيد جمال الدين من بعض جماعة العلماء ومختلف رجال الدين إما لجمودهم وعدم تعقلهم بالدين، وإما لحقدهم وعدم رضائهم عن ظهور عظيم بينهم تملأ شهرته الآفاق وتكون له فى النفوس أسمى مكانة.

فقام جماعة المحافظين على القديم بدون تفكير وأشعلوا حربًا شعواء على آراء جمال الدين المتطرفة فى نظرهم، المعتدلة فى نظر الحق، الخارجة عن الدين فى رأيهم والتى هى من صميم الدين فى رأى الشريعة، واتخذوا من دروسهم سبيلاً للطعن عليه محتجين بقراءته لبعض الكتب الفلسفية أخذًا بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها - على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ. أما الثابتون فى إيمانهم فلهم النظر فى علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين، فلا يزيدهم ذلك إلا بصيرة فى دينهم وقوة فى يقينهم، ولنا فى أئمة الملة الإسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول.

ولكن تمسك الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون ثم يحرفون فى النقل عنه ولا يشعرون».

وما كانت تعاليم جمال الدين وأبحاثه فى العقيدة إلا عن طريق العقل والتفكير فى الكون، وما وصله بحثه العقلى إلى مخالفة ما جاء فى النقل بل وافقه فى كل شىء اللهم إلا ما افتراه المبتدعون وادعاه الداخلون فى

الدين وما هم منه فى شىء. وكثيرًا ما يكتفى الكسول وضعيف القوة فى الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه فيقول: تلك بدعة فى الإسلام، وما يريد بهذا إلا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل فى البحث.

قام العلماء فى وجه السيد جمال الدين وأعلنوا عداءهم له. وقد نمى فى نفوسهم العداوة له بغض الإنجليز للسيد وعدم ارتياحهم لوجوده فى مصر، وخاصة بعد أن وقف النواب وبعض العلماء والشعب فى جانبه.

ثم عُزل إسماعيل وولى توفيق لكن بعد أن جعل للأجانب يدًا قوية فى البلاد ورأيًا نافذًا فى الحكم.

وبتولية توفيق ظهرت بارقة من الأمل للسيد جمال الدين لأنه ظن أنه اتعظ بما جرى لأبيه.

ظن السيد أن توفيق هو المحقق لرغباته لما أظهره من ميله للحكم النيابى آن أن كان معه فى جماعة الماسون.

ولكن مع الأسف سرعان ما تهدمت صروح آمال السيد جمال الدين بعد تولية توفيق.

ارتقى توفيق العرش ووجد نفسه بين قوتين متناقضتى الغرض. قوة أصدقائه المصلحين الذين أخذوا يحثونه على الوفاء بوعد كان أصدره لهم من قبل بتحقيق الحياة النيابية فى مصر، وقوة القناصل التى تمنع من أن ينزل عن شىء من سلطته التى كانوا يريدون الانتفاع بها..

تسلم الخديوى توفيق زمام الحكم ففوجئ بهاتين القوتين فاختار لنفسه أن يتدرع بالقناصل إبقاءً لسلطانه. فغضب جمال وحرض الشعب على الخروج على ذلك الحكم فقامت الثورات فى كل صقع.

فعلم وكلاء الدول وأرباب النفوذ فى مصر أن محرك هذه الأفكار، وباعث الأنفس على طلب الحرية إنما هو السيد جمال الدين، فتقدموا إلى الجناب الخديوى - وما كان الخديوى يجهل جمالاً ونفوذه - مقيمين له الأدلة على خطر الرجل، وأنه يريد أن يجعل مصر جمهورية هو رئيسها.

ومـا قـالوه من أنه هو المحرك للأفكار حق، أما أن يقولوا له: إنه يسعى لخلعك وقلب المملكة إلى جمهورية هو رئيسها فهذا كذب واختلاق. وليس جمال بالرجل المغرض أو الذى يعمل لمنفعته الذاتية.

نعم كان جمال الدين يريد أن تكون مصر جمهورية حرصًا على صالح البلاد ولكن ليس فى زمنه ولا فى زمن تلامذته، ولكن بعد أن يباد الجهل وينقشع الظلام. فلم يكن من المستطاع فى ذلك الوقت تأسيس جمهورية إذا نظرنا إلى حالة الجهل الذى كان سائدًا على العقول.

ظهرت بوادر اضطهاد السيد من الحكومة، وتمكنت اليد الأجنبية من تحقيق غرضها بطرد جمال الدين من مصر. ولقد قال (براون) فى كتابه «الثورة الفارسية»:

إن الحكومة البريطانية ساءها نشاط جمال الدين السياسى فحملت الخديوى الشاب على تخليص البلاد من ذلك المهيج الخطير. وقال الإمام فى ترجمته للحكيم فى كتاب «الرد على الدهريين»:

«إلا أن بعض المفسدين ومنهم مستر «فيفيان» قنصل إنجلترا سعى ضده لدى الخديوى ونقل عنه ما الله يعلم أنه برىء منه حتى غَيَّر قلب الخديوى عليه فأمر بإخراجه».

اجتمع مجلس النظار برياسة الخديوى وقرر نفى السيد جمال، وفى مساء السبت ٦ من رمضان سنة ١٢٩٦هـ (٢٤ من أغسطس سنة

١٨٧٩م) قبض عليه وهو عائد من مقهاه، وحجز في الضبطية مهانًا معذبًا، حتى إذا بزغ نور الفجر جاءه تلاميذه ومحبوه، ولكن الأوامر القاسية حالت بينهم وبين الاتصال به، إذ منعوه من الاتصال بأحد حتى من أخذ ملابسه.

ولما رفع ستار الظلام، وانبعثت أشعة الشمس من وكرها سطعت على السيد جمال وهو ملقى في السجن بين جدران مظلمة، فحملوه عندما وضح النهار في عربة مغلقة إلى محطة السكة الحديدية، ومنها إلى السويس وأنزل في الباخرة الذاهبة إلى الهند، فلحقه تلاميذه ليودعوه على الباخرة وفي نفسهم الآلام متراكمة، وفي أفكارهم ثورات متأججة.

فقال لهم السيد جمال: عجيب أن يكون نصيب المنتصر لمصر والمصريين هو الطرد.. ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم وهيأوا ما يلزم من العزم وما يتطلبه حكم الذات من رفض الهوى، ولسوف يفعلون ذلك إذا اجتمعت الكلمة وتوحدت الأهواء نحو الغاية. فلا يمكن أن تحيا مصر ولا يحيا الشرق إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قويًا عادلاً يحكمه بأهله.. ثم قال: إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال.

أنزل السيد في البحر ليسافر إلى بمباي، ولم يكن معه من النقود أكثر من ثلاثة جنيهات عثمانية، وبعض قروش من الفضة، على أن هذا المبلغ أخذ منه في السويس. فلما شعر بذلك قنصل دولة إيران بالسويس جاء ومعه بعض تجار العجم ليودعوه وتقدم القنصل إليه بمقدار مائة دينار على سبيل الهدية فأبى أن يأخذ منه شيئًا وقال كلمته المشهورة:

«احفظوا المال فأنتم إليه أحوج.. إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب»..

كلمة تبدو منها القوة والنزاهة، ويظهر فيها الإخلاص والعزة.. يتعفف عن المال وهو إليه أحوج من غيره، ويرفضه ولم يكن معه القليل ولا الكثير، بل يترفع عن أخذه بدون كسب وعمل أو بدون كد، معتمداً على صبره وأناته، على قوته وشجاعته، على جرأته وإقدامه..

وفى اليوم التالى من سفر السيد ذهب بعض تلامذته إلى بيته فوجدوا بعض أعوان الضبطية يعبثون كتبه فدهشوا ورجعوا، وكان عنده كتب كثيرة فى فنون شتى فاختار منها أعوان الإصلاح وحفظة الأمن ما اختاروا لأنفسهم وحشوا الباقى فى بطون الصناديق وأرسلوه إلى بندر «أبو شهر» من بلاد إيران ظنًا منهم بأن صاحب الكتب ذهب إليها، وبقيت الكتب فى مخزن الجمرك هناك إلى أن أكلتها العتة هنيئًا مريئًا.

هذا صنع توفيق مع السيد جمال الدين وهو الذى كان يقول له قبل نفيه بأيام:

«أنت موضع آمالى فى مصر أيها السيد»

فأين موضع هذا العمل من الإصلاح الذى كان ينادى به الجناب الخديوى فى أوامره العالية. أليس من أول مبادئ الإصلاح تقرير الأمن على الأنفس وكفالة الحقوق بالعدالة؟ ومتى يكون الأمن إذا لم تحقق التهم، ولم يسأل المتهم، ولم تتضح الجناية بأدلتها الصحيحة ولم تقدر العقوبة بقدرها؟

هل أدل من هذا على عدم تبييت النية فى نفس توفيق على عداء السيد ونفيه - وهو الذى كان معه فى الماسونية - وأن نفيه كان رغبة للأجانب وإجابة لهم.

وهل أدل من هذا على تغلغل الأجانب فى مصر ونفوذ كلمتهم واحترام رأيهم؟

وهل أدل من هذا على لين جانب الخديوى للأجانب وخشيته منهم؟.

لا ريب أن الانزعاج بنفى السيد كان عامًا، والكدر كان تامًا، ولكن الخديوى أظهر سروره مما فعل، وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ على مائدة الإفطار فى رمضان فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة من العلم والفضل فى محضر السيد جمال الدين.

ألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بنفى السيد وفيه من التقريع الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل، كما أنه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا معه. فنسبوا إليه السعى فى الأرض بالفساد، وأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا، وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية.

نشرت بعض الصحف هذا الخبر وهى مكرهة مرغمة، وأبت إحداها نشره لأن محررها كان من تلامذته فما كان من الحكومة إلا أن عطلتها.

على أن هذه الشدة من جانب الدولة على لسان حكومة الخديوى لم تزد الأفكار إلا حدة، والألسن إلا جرأة، والإحساس بضرورة الإصلاح إلا نموًا وظهورًا.

كما أن الضعف الذى أظهره الخديوى فى هذا الشأن - وهو أول شأن مهم عرض له فى حكمه - هو الذى سبب كل ما أصابه بعد ذلك من المتاعب ولو أنه وفى بعهوده للمصلحين ولوزرائه لبقى رعاياه موالين له ولما خرجت من يده تلك ا لروح القوية الفعالة.

هكذا استطاع الإنجليز أن يوغروا صدر الخديوى من ناحية جمال الدين، وهكذا استطاعوا أن يحـ.لوا بين جمال الدين وبين تحقيق أمانيه، وهكذا استطاعوا أن يفرقوا بين جمال الدين وبين تلاميذه..

نعم بهذا استطاعوا أن يبعدوا جسد جمال عن مصر، وشبح جمال عن تلاميذه. ولكن صورته ومبادئه ونظمه وخطته باقية دائمة ما دام لتلاميذه أثر فى نفوس الشعب، خالدة مع الإخلاص والحق، ولكن روحه باقية فى مصر تحث وتدفع.

نعم حق للإنجليز كأمة مستعمرة أن يعملوا هذا مع جمال الدين وهو أمة وحده، شجاع لا يهاب غير الحق، مقدام لا يوقفه إلا الباطل، شديد الجاذبية، سريع التأثير، يهابه الناس، ويكبره العظماء، ويخافه الحكام.

كان لهم أن يبعدوه عن مصر لما تولى توفيق الملك، لأنهم رأوا وارث العرش صديقًا محبًا له، كما أصبح السيد صلة بينه وبين المصلحين الذين وعدهم مرة بعد مرة بأنه متى وصل إلى العرش فسوف لا يحيد شعرة عن جادة الحكم الدستورى.

نعم ما كان ينتظر من الإنجليز أن يفعلوا مع جمال أقل من هذا بعد تولية توفيق. فقد جمعت فى يده قوة الشعب وقوة الخديوى حيث كانت الصلة بينهما وطيدة. والصداقة سابقة والاتفاق مقررًا.. ولما رأوا من ترحاب السيد جمال وصحبه المصلحين بارتقاء توفيق منصة العرش، واعتباره دليلاً على حسن الطالع وبلوغ المرام والفوز العظيم.

نفى جمال الدين وسافر إلى الهند، ونفى محمد عبده وسافر إلى قريته، وسجن أبو تراب فى سجون مصر ولازم زنزانته، وشرد أبناء جمال الدين، وعذب طلاب الإصلاح، فأثار هذا ثائرة الشعب، واستعدى غضبهم، فقام العلماء لإثارة رجال الأزهر وعملوا على أن يصدر شيخ

الإسلام فتوى بعدم صلاحية الخديوى للحكم وبوجوب خلعه ورفض طلبات أوروبا.

وقام المويلحى، والعطار، وراضى وغيرهم لإثارة النواب، فقاموا بدورهم يرفضون طلبات أوروبا ويجددون طلبهم الدستور مجاهدين فى سبيل إرجاعه.

وقام السيد عبدالله نديم لإثارة العامة، فأخذ يخطب فى الجموع الحاشدة فى الإسكندرية والأزهر التى كانت تبلغ عشرة آلاف وأكثر، يحثهم على رفض طلبات أوروبا وعدم كفاية الخديوى للحكم، ومؤازرة العلماء والنواب.

وقام عرابى وإخوانه من رجال الجيش يثيرون الجند ويحفزونه للتدخل فى السياسة ومساعدة العلماء والنواب والشعب فى طلباتهم حتى قال عرابى:

«إننا نحن المصريين لا نحب الدماء ولا نود أن يسفك شىء منها، ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهى مهمتنا نحن الجنود ولكنا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا، ولا نبالى - بعون الله - بقيمة الثمن الذى تقتضيه هذه الحراسة أو الذى يجب أن ندفعه فى مقابل حراسة الشعب للذين يحاولون إسكات صوته»

نعم قامت كل جماعة بثورة من جانبها، وقام تلاميذ جمال الدين كل فى ميدانه ثم قامت الأمة كلها بثورة واحدة هى ثورة المكلوم الحانق على الاستعمار. ثورة المطالب بحقه، المسترد لشرفه، المدافع عن عرضه وكرامته.

قامت الثورة فى مصر من أقصاها إلى أقصاها، وانتقل صداها إلى العالم الإسلامى فأظهر عطفه نحوها مؤيدًا الشعب المصرى فى مطالبه وازدادت قيمة عرابى فى عين العالم الإسلامى.

وهناك فى الهند حيث نفى جمال الدين قامت ثورة من دعاة الجامعة الإسلامية ليشغلوا إنجلترا يريدون بهذا مساعدة عرابى.. وأرسل عرابى إلى المستر غلادستون يقول:

إن أول قنبلة ترمى بها مصر ستكون سببًا فى سفك الدماء فى آسيا وأفريقيا، وأن تبعة ذلك كله على إنجلترا.

هبت الثورة العرابية كما تهب العاصفة بعد طول السكينة، فاشتركت فيها من الأمة كل قوة فكرية أو عسكرية، وشايعها الجامدون والمصلحون على السواء، لأن المظالم والمفاسد لم تدع للمصريين سلوة يتعزون بها أو مهربا يثوبون إليه، فمستهم مسًّا عنيفًا فى إيمانهم الدينى، وفى مصلحتهم الوطنية، وفى نخوتهم القومية، وفى أرزاق الأفراد وما يغارون عليه من حرمة مصونة، ومن خصائص الطبيعة المصرية فى هذه الثورة أن رجال الدين والأزهريين جملة كانوا على رأسها وفى طليعة دعاتها خلافًا لرجال الدين فى كل ثورة داخلية فى غير مصر فإن الطبيعة المصرية على ما نظن لم تكن لتسيغ ثورة ليس فيها للمحافظة مكان.

لم تفلح الثورة العرابية نظرًا لأنها أحيطت بدواعى الحبوط من الدسائس الخارجية ومن تهالك الحكام على الدول الأجنبية ومن عبث الدولة العثمانية.. ولولا ذلك لسارت فى طريق أقوم من طريقها وانتهت إلى مصير خير من مصيرها، ولكنها تعرضت لذلك جميعه فانتهى أمرها إلى الهزيمة وكانت نهايتها بداية احتلال أجنبى للبلاد.

نعم كان هذا مآل الثورة، وكانت تلك نتيجتها وربما صلح الحال، وعكس المآل. وتغيرت النتيجة بما فيه صالح البلاد لو كان السيد جمال الدين مقيمًا بمصر.

ولكن سافر السيد جمال والثورة فى نفوس المصريين تظهر فى آونة متلاحقة، وبسفره منفيًا اشتعل نارها، واشتد أوارها وتطاير شررها حتى يوم ١١ من يونيه سنة ١٨٨٢م إذ ضرب الأسطول الإنجليزى قنبلة فى الثغر السكندرى لحقت شظاياها جمال الدين فى منفاه فنقلته من «حيدر آباد» إلى «كلكتا» فشددت عليه الحكومة الرقابة وقطعت عنه حبل الرسائل، إلا أن مشعل الثورة كان قد انتقل إلى يد الإمام محمد عبده الذى كان مبعدًا فى قريته «محلة نصر» فأخذ يكتب بقلمه، ويجول بفكره حتى انزلقت رجله إلى السجن هو وجميع الزعماء الوطنيين، ودخلت إنجلترا مصر وقت أن دخل العبيد إلى من فى السجون ليكيلوا لهم العذاب وينزلوا بهم الخسف ويعملوا فيهم الضرب والسب.



أثر جمال الدين فى مصر

فيما سبق ذكرنا ما استطعنا أن نذكره عن السيد جمال الدين مدة إقامته بمصر وكتبنا ما عسى أن يكون تفصيلاً لحياة الفقيد وهو مقيم بها.

والآن بعد أن ودعناه منفيًا إلى الهند لابد لنا من ذكر كلمة ولو مجملة فيما كان له من الأثر البارز فى نهضة مصر الحديثة، مع علمى بأنى لا أستطيع أن أفى بها للمترجَم العظيم من الحقوق والواجبات التى عنقنا بها جميعا نحن المصريين.

أثره العلمى والأدبى

قبل مجىء السيد إلى مصر كان الأفق العلمى ضيقًا وكان العلماء يلتزمون فى البحث والتفكير طرائق لا تنتهى إلى تبصرة وهداية، وكان الناس قد تنكبوا فى فهم الإسلام على وجهه الصحيح، وتعرجوا به فى طرق خرجت به عن جادته القومية، وكان الأدب أيضًا راكدًا ولغة الكتابة فى منتهى الضعف، فعمل جمال على القضاء على تلك الأفكار العقيمة والبحوث البالية التى لا تؤدى إلى العلم والعرفان. وراح يغرس فى تلاميذه والمنتمين إليه روح التفكير المطلق وحب الحقائق التى تتمشى مع العقل السليم والرأى الحصيف.

لم يتوان السيد جمال لحظة واحدة عن تلقين تلاميذه أفكاره الحرة

سواء فى منزله أو فى المقهى الذى كان يجلس فيه، وسرعان ما ظهر فى سماء مصر كواكب العلم ونجوم العرفان أمثال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والشيخ أبو خطوة، والشيخ حسن الطويل، والشيخ عبد الرحمن قراعة، والشيخ بخيت.

كذلك كان للنهضة الأدبية بفضل السيد جمال الدين الأثر المحمود فى حالة مصر العامة فلم يكن قبل جمال الدين أدباء بالمعنى الصحيح يعبرون عن أمانى الشعب وآماله، ولم يكن قبل نزول السيد جمال مصر خطباء ينبهون الشعب إلى ما يجب ومالا يكون، وكانت البلاد فى حاجة ملحة إلى كتاب ينافحون عنها ويقاومون ذلك الحكم الاستبدادى الذى كان يبسط سلطانه على الناس وقتئذ، فما زال جمال الدين بتلاميذه يرغبهم فى الكتابة ويحبب إليهم الأدب حتى ظهرت طائفة من الخطباء والأدباء نذكر منهم أديب إسحاق، وعبد السلام المويلحى، واللقانى، وحفنى ناصف، وعبد الله نديم، وقد استطاعوا أن يوجدوا حركة أدبية فى البلاد، كان لها الفضل كل الفضل فى انتشار العلوم وتنوير الأفكار وترقية لغة الضاد، وإليك ما يقول المرحوم حافظ إبراهيم شاعر النيل فى كتابه (ليالى سطيح):

«كان الفضل فى القضاء على التقليد راجعًا لجمال الدين وتلاميذه، أحيا الله بواسطتهم اللغة العربية وبعث الحياة فى رميم الإنشاء، وكان الناس قبل ذلك يدينون باللفظ ويفكرون بالمعنى، فمازال بهم حتى أبصروا نور الهداية وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى».

ويجدر بنا أن نشيد بالطبيعة المصرية التى دلت على حسن استعداد المصرى للتعلم والتهذيب، وأن نفخر بما عليه المصريون من حب العلم

وإكرام العلماء، فلم نر أثرًا لدعوة جمال الدين إلى الإصلاح مثل ما نرى له فى مصر، ولم نقرأ فى كتب التاريخ أن بلادًا قد أثمرت فيها تعاليمه وآتت أكلها ضعفين مثل ما نقرأ ذلك فى تاريخ مصر الحديث، ولولا ذلك الاستعداد الذى تهيأت له الأمة بطبيعتها وتلك الظروف التى كانت فيها البلاد لأخفقت دعوته وماتت فى مهدها.

أثر السيد جمال الدين

«كان من مبادئ جمال الدين أن الإسلام والذل لا يجتمعان فى قلب واحد» ولعمرى إنه لمبدأ خالد يكتب بماء الذهب فى تاريخ جمال ويضمن له البقاء والخلود ويسمو به إلى مراتب عظماء الرجال.

نعم إنه لآية من آيات الحق، ووحى هبط من السماء، وتأييد من الله يؤيد به عباده المصلحين، وهداية من الرحمن، ونعمة يسبغها الله على من يشاء إنه عليم قدير.

أخبرنى أيها القارئ أى مسلم يقرأ هذا المبدأ القويم دون أن يسكب الدمع مدرارًا، ودون أن تذهب نفسه حسرات على ما كان للمسلمين فى غابر الأزمان من عز وسؤدد، وما هو عليه أكثرهم اليوم من الذلة والانحطاط.

ساء جمال الدين ما وجد عليه علماء الإسلام من ضعف الإرادة وفقد العزيمة والاستكانة للغير، مع ما فى هذا من مخالفة صريحة للدين الحنيف الذى يدعو أهله إلى الاعتزاز بالكرامة والجرأة فى الحق والإخلاص فى العمل وترك الكذب والنفاق والملق؛ وما إلى ذلك من الأمور الخسيسة التى تتنافى مع الإنسانية الراقية المهذبة ولا تستقيم مع الحياة الحرة النزيهة الشريفة.

نعم يسوء رجلاً مثل جمال تطلع لإحياء مجد الإسلام ووهب نفسه لخدمة المسلمين فى الشرق أن يرى فى المسلمين تفشى الذل والمسكنة، وأن يرى فى العلماء ضعفًا وجبنًا للملوك المستبدين وأن يرى بينهم وبين علوم الفلسفة سدا منيعًا وحجابًا كثيفًا. فأزال هذه الحجب وحطم تلك السدود وأبان لهم أن الإسلام دين العقل والنظر والمناقشة، وأن المسلم لا يكون مسلما صحيح الإسلام إلا إذا اعتقد عن دليل وبرهان أن الله واحد وأن محمداً - عليه الصلاة والسلام - نبيه ورسوله ولا سبيل إلى هذا إلا إذا طرق المسلمون أبواب العلم وأخذوا من كل فن بمقدار، وبغير ذلك لا تقوم للإسلام قائمة ولا ترفع له راية ويبقى أهله موضع الزراية والاحتقار فى نظر أهل الغرب الذى بلغ ما بلغ من التقدم فى العلوم والمدنية والذى ما فتئ يطلع علينا كل يوم بأحدث المخترعات والمكتشفات.

واجتهد جمال الدين فى حمل الممالك التى وعظ بها على أن تعيد النظر فى الموقف الإسلامى كله، وأن تستبدل بالتمسك بالقديم التحرك إلى الأمام فى حركات أدبية منسجمة مع العلم العصرى، وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة من إقامة الحجة على أنهما لو أحسن فهمهما معًا لكان الإسلام كُفئًا لإحداث تطور راق عظيم.

دأب جمال على محاربة تلك الخلال الرديئة فى المسلمين وعمل على اجتثاثها من جذورها، يعاونه فى ذلك تلاميذه الذين تقبلوا دعوته واستساغوها من أول لحظة وصل إليهم عبيرها فلم يمض قليل من الزمن حتى دبت فى نفوس الأزهريين روح اليقظة. وجرى فى عروقهم دم الحياة الجديدة، وكانت نهضة دينية احتضنها الأزهر ومشى على هديها، ولا يزال يستضىء بنورها إلى اليوم.

وقد ظهر آنئذ على مسرح الحياة علماء عصريون فهموا الدين الفهم الصحيح وعرفوا أن المدنية الأصلية من صميم الإسلام. وشاركوا الأمة فى آمالها وآلامها، وقد تجلى أثر ذلك فيما قام به الأزهريون ضد الحكام المستبدين، وفيما قاموا به ضد شيخ الأزهر فى ذلك الحين الشيخ محمد العباسى الذى ضعفت ثقة العلماء فى أن يصدر فتوى لمصلحة النظام الدستورى حتى لا يستطيع الخديوى أن ينكث بعهده فى إصدار مرسوم بالدستور، وظهر أيضًا فى انتخاب الطلاب الشيخ عليش مخالفين ما جرت به العادة من أن الحاكم هو الذى له الحق فى تعيين مشايخ المذاهب. فانتخبوا جميعًا الشيخ عليش شيخًا للسادة المالكية، ذلك الرجل المعروف لدى الناس بالصراحة والوطنية، والذى بلغ من جرأته أن أصدر بعد مدة من تعيينه فتوى قال فيها: «بما أن الخديوى قد حاول أن يبيع البلاد للأجانب وأطاع إشارات قناصل أوروبا فإنه لم يعد يصلح لأن يكون واليًا على المسلمين المصريين ويجب لذلك خلعه» فصدق الجميع على هذه الفتوى وذهب الشيخ محمد خضير ومعه نفر من الأعيان إلى درويش (باشا) الذى طلبت إنجلترا انتدابه من السلطان وقدموا إليه عريضة وقع عليها ١٠٠٠٠ من العلماء والطلبة طلبوا فيها رفض طلبات الدول وخلع الخديوى، فعقدت عدة اجتماعات فى الإسكندرية والقاهرة كان أشدها حماسًا ووطنية الاجتماع الذى عقد فى الأزهر على هيئة مؤتمر خطب فى هذا الاجتماع السيد عبد الله نديم وقرروا الاحتجاج على معاملة درويش باشا للعلماء، مما اضطر البعثة التى يرسلها أن تسحب مقترحات أوروبا.

ذلك من آثار دعوة جمال، وتلك هى ثمرة غرسه الجميل فى نفوس الأزهريين.

أثره السياسى وتكوينه للحزب الوطنى

ارتبكت مصر من الناحية المالية. وساء حالها من الناحية السياسية فاشتد الظلم وزاد الجور وعظم التدخل الأجنبى فى مصر وأحاط بالمصريين الذل من كل جانب.

لم يرض هذا جمال الدين، وهو الذى فطرت نفسه على الحرية وهو الذى يقول : «لا يجتمع الإسلام والذل فى قلب واحد» فمال إلى تخليص البلاد من هذا الأسر وأخذ يعمل على تحقيق أمله فارتأى أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بتكوين الجمعيات الوطنية ولم يكن حينئذ فى مصر جمعيات منظمة لها أثرها العالمى مثل «جمعية الماسونية» فدخلها السيد لتحقيق مقصده السياسى، فيتعرف بعظماء المصريين وغيرهم من الذين تضمهم هذه الجماعة أملاً منه فى مساعدتهم إياه فى رفع الظلم عن المصريين وتحقيق أحد مبادئها وهو الحرية.

عمل جمال فى الجمعية حتى تقدم فيها ونال درجة كبيرة، وصار من الرؤساء ثم أنشأ محفلاً وطنيًا.

ودعا مريديه من العلماء والوجهاء إلى الانضمام إلى محفله فبلغ عدد أعضائه ثلاثمائة عضو، وعظم إقبال الناس عليه حتى أن توفيق ولى العهد حينئذ طلب الدخول فيه.

وكان السيد جمال الدين دائمًا يجهر بعدائه للإنجليز، ونشر فى جريدة مصر فصولا ناطقة بعداوته لهم فتنبه الإنجليز لجمال من جراء هذه المقالات وترجمتها جرائد لندن واهتموا بها كثيرًا.

ولَمَّا عظم شأن محفله واتسع نفوذه وتضاعف عدد المشتركين فيه دَاخَلَ إنجلترا الخوف من هذا المحفل فاتصل قنصلها بالحكومة فعملت على فشله وفضه.

لم يكن ذلك محبطًا لآمال جمال الدين فسرعان ما اجتمع بأعضاء محفله اجتماعًا سريًا وانضم إليهم بعد ذلك كثير من الساسة والأدباء وأخذوا يتباحثون ويتناقشون أيامًا حتى قَرَّ رأيهم على تأليف حزب مسمى بالحزب الوطنى. فى أوائل سنة ١٨٧٩م وقد بقى هذا الحزب فى طى الخفاء يرسم الخطط ويذيع الأنباء: فلما ظهر للسيد جمال أن إسماعيل مخلوع لا محالة كشف الغطاء عن مقاصده السياسية وظهر بحزبه الجديد فى الميدان السياسى، وكان هذا لأول مرة فى تاريخ مصر يعرف فيه اسم الحزب الوطنى الحر.

ولما ساء حال مصر بزيادة التدخل الإنجليزى وبلغ السيل الزبى؛ ذهب السيد جمال الدين على رأس وفد من أعضاء حزبه إلى المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا، ومكاتب (التيمس) وكلمهما بلسان حزب كبير قائلاً:

«إن فى مصر حزبًا وطنيًا يطلب الإصلاح ويسعى إليه، وإن الإصلاح فى مصر لا يتم إلا على يد توفيق» قاصدا بذلك خلع إسماعيل بعد أن عدلوا عن مؤامرة اغتياله إذ كان فى نيتهم اغتيال إسماعيل، وانتشر ذلك الخبر فى القاهرة وغيرها بسرعة البرق وتناقلته الجرائد فى حينه.

ودخل فى ذلك الحزب كثير من العلماء والنواب نذكر منهم الشيخ محمد عبده، والسيد عبد الله نديم، وأحمد محمود، وحسن الشريعى. وسعد الله حلبى، وحسن السيد قنديل، ومحمود البارودى.

وكان الحزب يرى أن أهم عمل للإصلاح هو تعميم التعليم فى مصر ونشر الثقافة، وهذا كله لا يحصل إلا بواسطة حرية المطبوعات وإبقاء مجلس شورى النواب.

وكان من مبادئه المطالبة بإطلاق الحريات الكافية للنواب ليعمل بإخلاص فى جو هادئ، ويريدون تقوية جيشهم وزيادته لأنه هو حامى ذمارهم، وكان هذا الحزب حزبًا سياسياً لا دينيًا فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذاهب، لأن الكل إخوان وحقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية.

وكانت آمال هذا الحزب معقودة على إصلاح البلاد ماديًا وأدبيًا ولا يكون ذلك إلا بحفظ الشرائع والقوانين، وتوسيع نطاق المعارف، وإطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة.

هذا هو مختصر برنامج الحزب الوطنى القديم، وهناك حلقة اتصال بين مصطفى كامل وبين جمال الدين. وقد اعتبر الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٨م أنه الوارث الوحيد المباشر للحزب الوطنى القديم الذى نحن بصدد الحديث عنه، يرجع بعض هذا إلى تطرف ذلك الشاب الوطنى المتفانى فى حب بلاده، والذى وَصَّل تعاليم السيد جمال إلى مصطفى كامل ولقنها له هو السيد عبد الله نديم صاحب جريدة الطائف وخطيب الثورة العرابية.

هذا هو ما نعرفه عن السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر، وتلك بعض آثاره التى استطعنا معرفتها وتمكنا من ، كرها، ولكن مآثر السيد كثيرة ومجهوده عظيم لا يحصره حاصر ولا يستطيع أن يقف على تفاصيله مؤرخ.... وبالجملة فمصر الحديثة هى من غرس السيد جمال أو هى هديته إلى أبناء جيلنا الحالى.

لقد نشأ جمال على حب الحرية ومقت الاستعمار وحاربه فى كل مكان، وأكسبته تربيته الأولى شجاعة فائقة وصراحة فى الحق إلى ما عرف به من إباء الضيم وقوة الشكيمة والأنفة وعلو النفس وسمو الهمة وموقفه مع (محمد أعظم) فى الحرب الأفغانية وولاؤه بعد انهزامه بالرغم من إغراء (شير على) بعرض المناصب الكبيرة عليه يدل على ما كان لجمال من الصفات العالية والأخلاق السامية.

ومقصده السياسى كما يقول الأستاذ الإمام:

إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية. فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيف مجده، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية. وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها.

جاء السيد إلى مصر يحمل بين جنبيه نفسًا كبيرة وروحًا قوية، ناقمًا على دول الاستعمار. وخاصة إنجلترا، منددًا بأعمالها فى الشرق التى تزرى بالإنسانية وتذهب بالكرامة.

وكان المصريون وقتئذ قادمين على عهد بغيض استهدفت فيه البلاد

للأخطار، وعانى فيه الأهالى مرارة الاستبداد من فداحة الضرائب بسبب إسراف إسماعيل فى القروض، فما جاء عام ١٨٧٦م حتى كان للتدخل الأجنبى اليد العظمى فى شئون مصر، وبدأ المصريون يشعرون بخطر ذلك التدخل فثاروا على نظام الحكم وأعلنوا سخطهم على الحكومة وسياستها الخرقاء التى أفضت إلى امتهان كرامة البلاد، وكانت نهضة وطنية حقة ظهرت بفضل مبادئ جمال الدين الوطنية وتعاليمه السياسية التى غرسها فى تلاميذه فكانت بعد من أهم العوامل فى تنشيط الروح القومية، فتحرك الشعب ضد التدخل الأجنبى، وانتشرت الصحف السياسية، وزاد إقبال الناس عليها، ثم بدت فى مجلس شورى النواب روح اليقظة والمعارضة على يد نواب نفخ فيهم جمال من روحه: نذكر منهم عبد السلام المويلحى النائب الوطنى الجرىء وانتفع بها فى حياته الوطنية.

ونحن المصريين مدينون لجمال فى جميع حركاتنا الوطنية، فليذكر كل مصرى أن جمال الدين هو الذى بعث النهضة الفكرية فى مصر التى نجنى ثمارها اليوم، ونبنى عليها دعائم نهضتنا ونشيد صروح آمالنا.

نعم لقد خرَّج السيد جمال الدين من مدرسته أساطين السياسة ورجال الزعامة فهذا سعد زغلول، تتلمذ عليه واغترف من بحر علمه، وذاك خالد الذكر الشاب النابه مصطفى كامل الذى نهج منهج جمال ونهل من منهله السياسى وتشرب من مبادئه: وتلقن خطة السيد من الثائر الخطير السيد عبد الله نديم.

وهذان هما رجلا النهضة السياسية الأولى : أما مصطفى فكان

الباعث لها. وأما سعد فهو الذى تعهدها من بعد مصطفى وصار بها إلى أن انتهت إلى ثورتنا الحاضرة التى رفعت رأس مصر ووضعتها فى مصاف الدول الكبرى، معتدة بمجدها وبأبنائها، سائرة فى اتجاهها حتى لا تدع مجالاً لباب من أبواب المجد إلا ولجت به إن شاء الله..

كتب الله لها التوفيق....



جهاده بعيداً عن الوطن
جمال الدين فى الهند
للمرة الثالثة

تكلمنا عن جمال الدين فى الهند فى المرة الأولى والثانية.

أما الأولى: فكان قد ذهب إليها تلميذًا متزودًا من علومها ومعارفها، وأما الثانية: فجاء إليها أستاذًا له قيمته وقدرته فوق ما كان له من الشأن العظيم فى الحياة العلمية والعملية.

أبحر الحكيم إلى الهند للمرة الثالثة منفيا من مصر ونزل فى ميناء «بوشهير» ثم انتقل إلى «حيدر آباد».

سافر السيد إلى الهند وقد تركت روحه الثورية أثرًا هائلاً فى نفوس أبناء مصر لم تلبث الأيام أن أظهرته فى ثورة عرابى أحد أبناء الحكيم.

أبحر السيد إلى الهند وفى نفسه ألم ممض، وحزن عميق من قرار الحكومة القاضى بنفيه وصدور بلاغ كاذب ضده مملوء بالأباطيل من حكومة رئيسها الأعلى الخديوى توفيق الذى قال له فى يوم ما:

«أنت موضع آمالى فى مصر أيها السيد»

نعم لجمال الدين أن يحزن ويأسف على ما لقى فى مصر من الهيئات الحاكمة.

«أصر جمال وهو فى الهند على ترك السياسة، وعدم الاشتغال بها.

فاعتكف على الدراسة العلمية، ووضع «رسالة الرد على الدهريين» التى دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه عندما رأى حكومة الهند الإنجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد إغراءً لهم بنبذ الأديان وحل عقود الإيمان. وأن كثيراً من العامة فتنوا بآرائهم، وخدعوا عن عقائدهم، وكثر الاستفهام منهم عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالة، وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل «مواوى محمد واصل» من حيدر أباد الدكن من بلاد الهند فأجابه السيد جمال بخطاب وعده فيه بإنشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه. وقد وضعها فجاءت رسالة قيمة مدعمة بالحجج، معززة بالبراهين العقلية. ولقد ارتأى فضيلة الأستاذ الإمام أن ينقلها إلى العربية تعميمًا للفائدة فاستعان بعارف أبى تراب أفندى الأفغانى خادم السيد جمال.

كتب السيد جمال تلك الرسالة التى وعد بها، وأبان فيها مذاهب الحكماء والفلاسفة فى حقيقة الوجود ثم تكلم عن النيتشريين «الطبيعيين» وحقيقة أمرهم وما هم فيه من تضليل وجهالة، ثم بين فضل الأديان وأحقيتها وميزة الإسلام على سائر الأديان وأن سعادة الإنسانية لا تتم إلا به.

ولمَّا كانت تلك الرسالة مفيدة ثمينة بما فيها من المباحث القيمة والآراء الحكيمة: رأيت من واجبى ولا سيما وأنا أكتب عن تاريخ صاحبها أن أذكر ملخصًا لبعض مباحثها لنعطى لقراء هذا الكتاب صورة ولو مصغرة عن مقدرة الرجل، وقوة حجته، وسحر بيانه، وشدة تأثيره، ومقدار إيمانه، ورسوخ عقيدته، قال:

انقسم حكماء اليونان فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد إلى فئتين:

الأولى: ذهبت إلى وجود ذات مجردة عن المادة، والمادة مخالفة للمحسوسات فى لوازمها، منزهة عن اللواحق الجسمانية وعوارضها. واشتهرت هذه الطائفة «بالخاضعين لله» ومنهم: فيثاغورث، سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وغيرهم

الثانية: ذهبت إلى نفى كل موجود سوى المادة والماديات، وعرفت هذه الفئة «بالماديين» والعرب تقول عنهم : «الطبيعيون» وفى الفرنسية «التاتوريون» وفى الإنجليزية «النيتشريون».

ثم فند السيد رأى هؤلاء، ورد عليهم بأن الرادع للنفس والمانع لها من تجاوز حد الاعتدال إنما يكون بأحد أمور أربعة، نلخص ثلاثة منها ونذكر الرابع لأهميته :

١ - **المدافعة الشخصية** : وهذه ضراب وقتال يؤدى إلى انقراض النوع الإنسانى.

٢ - **شرف النفس** : وهى صفة متغايرة بتغاير البلاد، فكثير من الأمور خسة عند البعض وهى بعينها رفعة وشرف عند الآخرين.

٣ - **الحكومة** : وهى لا تكف إلا العدوان الظاهر.

٤ - **الاعتقاد بالألوهية** : إذن لم يبق للشهوة قامع ولا للأهواء رادع إلا الإيمان بأن للعالم صانعا عالما بمضمرات القلوب، ومطويات الأنفس، سامى القدرة، واسع الحول والقوة، مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه الحياة. وفى الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات، ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه، وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر. وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق والتوقيف عند الحد، وبدونهما لا تقرر هيئة

للاجتماع الإنسانى، ولا تلبس المدنية سربال الحياة.. ولو خليت القلوب منهما لسكنتها شياطين الرذائل.

من أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة، أو يترفع بها عن كذب، وغدر، وتملق... أو أى حامل يحمله على المعاونة والرحمة والمروءة وعلو الهمة ... إلخ، من الأخلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها ولئن وُجِد فى أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان أبتر ناقصاً؛ لفقد ما يمده من سائر صفات الكمال.

وأول تعاليم «النيتشريين» - الطبيعيين إبطال هذين الاعتقادين: (١) الله، (٢) الحياة الأبدية، وهما أساس كل دين. وآخر تعاليم الإباحة والانطلاق؛ فهم الساعون فى نسف بناء الإنسانية، يطلبون ضعضعة أركان المدينة وفساد الأخلاق البشرية، ويقضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة: فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة، وإخماد ريح الحمية. هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة: صحبتهم صيد، وتوددهم مكر، ومواصلتهم غدر، وصداقتهم خيانة، ودعواهم للإنسانية حبالة، أسراء الشهوات، لا إحساس لهم بالعار، الابن فيهم لا يأمن من أبيه، والبنت لا أمان لها من كليهما!

قد يوجد بين الناس من تروقه رقة جلود هذه الأفاعى، وانتظام الرقش فيها، فيلتبس عليه أمرهم فيصغى لزخرف قولهم ويظن أن هؤلاء القوم من طلاب التمدن، أو من الراغبين فى بث المعارف. فذلك المغرور بمظاهر هذه الطائفة لا محالة يبكى عليه ويضحك منه. فالضحك عجباً من غروره! والبكاء حزنًا على ضلاله

فتبين مما قررناه أن الدين - وإن انحطت درجته بين الأديان، وهى

أساسه - أفضل من طريقة الدهريين، وأمسّ بالمدنية ونظام الجمعية الإنسانية، وأجمل أثرا فى عقد روابط المعاملات، بل فى كل شأن يفيد المجتمع.

فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان. فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق، ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه، فلا ريب أنه يكون سببًا فى السعادة التامة، والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه فى جواد الكمال الصورى والمعنوى، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ويرفع أعلام المدنية لطلابها. بل يفيض على المتمدينين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين .

وكان السيد جمال يرى لسعادة الأمم أمورًا لا تتم إلا بها، فالأمة التى تسير على نهجها، وتعمل بها هى السعيدة وإلا فيكون الشقاء حليفها، وقد أوضح هذه الأمور فى نهاية كتابه «الرد على الدهريين» نذكر ملخصها إتمامًا للفائدة:

الأول : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام، فإنها لو تَدَنَّسَ بها العقل لقامت حجابًا كثيفًا يحول بينه وبين حقيقة الواقع.

وأول ركن بُنى عليه الدين الإسلامى صَقْل العقول بصقال التوحيد وتَطَهِّرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله متفرد بتصريف الأكوان، متوحد فى خلق الفواعل والأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد - علويًا كان أو سفليًا - بأن له فى الكون أثرا بنفع أو ضر. أو إعطاء أو منع، أو اعتزاز أو إذلال.

وأغلب الأديان الموجودة لا تخلو من هذه الأوهام، إنْ شئت فاضرب بنظرك إلى ديانة «برهمـــا» فى الهند، ودين «بوذة» فى الصين، ودين «زرادشت»، وكثير من الأديان.

الثانى: أن تكون نفس الأمم مستقبلة وجهة الشرف، طامحة إلى بلوغ الغاية منه، بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنسانى ماعدا مرتبة النبوة فإنها بمعزل عن الطمع، وإنما يختص الله بها من شاء من عباده ولا يذهب وهم أحد من الأمة إلى أنه ناقص الفطرة، منحط المنزلة، فاقد الاستعداد بشىء من الكمالات.

إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس، وكشف لها عن غايته، وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة، وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة، ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة، وقد لا نجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

الثالث: أن تكون عقائد الأمة وهى أول رقم ينقش فى ألواح نفوسها مبنية على البراهين القويمة، والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقداً لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنًا فلا يكون مؤمنًا. هذا، والآخذ فى عقائده بالظن ينصب عقله على متابعة الظنون، والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته فأولى به أن يكون عليها، يلتقى مع سابقه فى مضارب الوهم وفجاج الظن.

إنَّ الدين الإسـلامى يكاد يكون مـتـفـردًا من بين الأديان بتـقـريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون. هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبـرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب العقل وكلما حَاكَمَ حَاكِمٌ إلى العقل تنطق، نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة.

وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة.

الرابع: أن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، ولا يألون جهدًا فى تبيين طرق السعادة لهم، ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها، وتكشف عن الأوصاف الفاضلة، وتفضح ستور الرذائل، وتشتد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن من أهم الأركان الدينية فى الديانات الإسلامية هاتين الفريضتين: نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر «**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**» (آل عمران: ١٠٤) «**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**» (التوبة: ١٢٢).. وقد برز دين الإسلام على غالب الأديان فى العناية بهذين الأمرين.

فإن قال قائل: إنْ كانت الديانة الإسلامية على ما بينت فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن؟ فجوابه أن المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم ما بلغوا والعالم يشهد بفضلهم، وأكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف «**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**» (الرعد: ١١).

كلمات كلها إيمان، كلها قوة، مليئة بالأدلة، مدعمة بالحجج، معززة بالبراهين، تدل على سعة اطلاع الرجل، وفيض علمه، وغزارة مادته، وبديهة قريحته، ومنها تبدو لك عقيدة الرجل الدينية نقية لا غبار عليها، كاملة لا تشوبها شائبة، ويظهر لك إسلامه صحيحًا لا نقص فيه. فأنت إذا ما تمعنت فى تلك الآيات البينات التى كتبها السيد جمال لوجدته قد دافع فيها عن الدين الإسلامى دفاع الجندى الظافر دفاعًا مجيدًا، منتقلاً بك إلى أن الإسلام هو دين الحق، دين الكمال، دين الله جلَّ شأنه، دين الهداية والرشاد، دين المدنية والرقى الذى تتم باتباعه السعادة فى الدارين.

ما كان هذا كل مجهود السيد جمال العلمى، بل وضع عدة مذكرات بالفارسية والأفغانية بعضها طبع وترجم، وبعضها حيل بينه وبين إصداره. ومن كتبه التى خرجت إلى حيز الوجود كتابه «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» نقتطف منه الجمل الآتية:

«كثرة الحُجَّاب والمُنَّاع هو أساس الظلم فى البلاد الشرقية، حيث يوجب تطاول أيدى الولاة والمأمورين على حقوق الرعايا، كما هو مشاهد الآن فى جميع أقطار الشرق» وقال فيه:

«لا يليق بالأمراء والسلاطين إذا غدروا بشخص أو ظلموه أو أضاعوا حقه أن يصافوه، ويعتمدوا عليه، خصوصًا فى مهمات أمورهم، فإن الحقد والعداوة إذا قرعت قلبًا زايلته».

ونذكر من كتبه أيضًا «الخلافة» الذى صادرته حكومة الهند الإنكليزية لما فيه من المساس بها، والتعرض لسياستها فى الشرق، ولما فيه من تحريض الناس على التخلص من حكمهم.

كان بود السيد جمال الدين ألا يشتغل بالسياسة مرة أخرى بعد هذا الاضطهاد، ولكن كيف له أن يبتعد عن السياسة وقد امتزجت به دمًا ولحمًا، فلم تنقطع عنه الرسائل من مصر، ولم يقطع هو من جانبه رسائله إلى أصدقائه وتلاميذه فى مصر؛ مستفسرًا عن أحوالها حتى قامت الثورة العرابية، فلم يسع السيد جمال إلا أن يشارك مصر فى ثورتها، فحرَّض مسلمى الهند على القيام بثورة داخلية بقصد شغل إنجلترا عن ثورة مصر خدمة لإخوانهم المصريين.

ولكن عندما فوجئ الإنكليز بهذا شعروا بخطر السيد جمال فأبعدوه إلى «كلكتا» كى لا يتصل بالمصريين، وشددوا عليه الرقابة، وأحاطوه بالجواسيس، ولم يمكث فيها إلا سبعة أشهر.

وفى أثناء إقامة السيد جمال بكلكتا انتهت الثورة العرابية فى مصر بفشلها، ونفى الإمام محمد عبده إلى «بيروت»، وأرسل إلى السيد جمال الدين خطابًا يخبره فيه عن حاله، وما انتهى إليه أمره من نفى واضطهاد، وتعذيب، وتنكيل.

إنك لتتبين من خلال هذا الخطاب منزلة السيد جمال فى نفس الإمام وما يكنه له من حب وإخلاص، وما يقدمه له من فروض الطاعة، وما يضمره له من أخلص وفاء،وما يعترف به من حق الأستاذية ومقام الأبوة.

ولقد حدثنى أحد تلامذة الإمام قائلاً:

«إنَّ الإمام كان يتحاشى أن يتحدث عن السيد جمال الدين، فإذا ما دعته الضرورة التى لا مفر منها إلى ذكره، فتحدث عنه ولو بعبارة بسيطة أو بطريق الإشارة أخذته رعدة قوية، ودمعت عيناه، وأخبرنى أن الإمام

قال لهم: إن صلته بالسيد جمال ليست صلة تلميذ بأستاذه فحسب، ولا صلة أخ بأخيه، ولكن هى صلة حب تمكن فى القلب.

وهذه فقرات من خطاب الإمام اقتطفناها منه لما فيها من حكم عالية، وأخبار طريفة، وعبارات شيقة، مكتفين بها مراعاة للاختصار:

« .. أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب، وأعقل العقول وأذل بها شوامخ المصاعب، وأتصرف بها فى خواطر النفوس. ومنحت من لدنك عزيمة أتعتع بها الثوابت، وأصدع بها شم المشاكل، وأثبت بها فى الحق حتى يرضى الحق، وكنت أظن أن قدرتى غير محدودة، ومكنتى لا مبتوتة ولا مقدورة، فإذا أنا من الأيام كل يوم فى شأن جديد.»

ومنه: «إنى يا مولاى لا أحدثك عن شىء مما أصابنا بعد فراقك، فقد تكفل ببيانه أخى العزيز إبراهيم أفندى اللقانى. سوى ما تركه فى كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك.. حتى أنهم غيروا قلب «دولتلو رياض باشا» عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياماً معدودة، ركن فيها للعمل بالشدة .. ولكن ازال ما لبس المبطلون، وبطل كيدهم وما كانوا يعملون، ونزلت عنده منزلة حسدنى عليها الكافة من العلماء والأمراء ورجال الحكومة، وقعدت من كل أمير مصعد النفس، فلا ينطق إلا بما تريد حكمتك، ولا يعمل إلا ما تشاء إرادتك، فكأنك - وحقك - كنت بين أظهر المصريين ساعيًا فيهم إلى مقاصدك العالية، طالبًا بهم أوج السعادة وذروة المجد والفخار .. وألِّفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلاً ليس بالقليل، يجلون قدرك ويعرفون لك فضلك، وكنا وإخواننا كما شرح لك إبراهيم أفندى اللقانى.

ولكن هذا لم يلهنى عن طلب الانتصار لك، وكدت أصل إلى ذلك من طريق مألوف ومذهب معروف، ولكن غلبنا على الأمر قطاع طريق الخير اللابسين ثياب الأنبياء، انتحلوا طريقتنا فى الدعوة إلى الحرية، وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من إقناع العامة بكونهم دعاة الحق، وحماة القانون.

وها نحن سالكون فى سنتك وعلى سننك، وكنا كذلك ولا نزال إلى انقضاء الآجال .. ولولا أطفال لنا رضع، ونساء لنا طوع أبينا لهم الذل، وأنفنا لهم الضيم، فأتينا بهم إلى هنا حيث أقمنا، لكنت أول من تلقاك فى مدينة باريس لأسعد بالإقامة فى خدمتك وأفخر بذلك على العالمين.

محمد عبده

هذه فقرة من كتاب الأستاذ الإمام إلى أستاذه السيد جمال الدين، وإنك كلما أطلت النظر فيما حوته من معان لبلغت منك الدهشة ولأرتك كيف كان تقدير ذلك الإمام لأستاذه وتقديسه لمبادئه وتعليماته.

جمال الدين فى أوربا

فى لندن

شخص جمال إلى أوربا بعد أن أقام بالهند نحو ثلاث سنوات فاق مجهوده العلمى فيها مجهوده السياسى، حيث وضع عدة رسائل كما قدمنا.

وذهب بعض المؤرخين إلى أنه سافر خلال هذه المدة إلى (أمريكا) ومن هؤلاء «ولسن» إذ يقول فى كتابه «الحركات الحديثة» : «إن جمال الدين سافر أيام كان فى الهند إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية، ولكنه لم يقم بها».

ولا نستطيع أن نسلم بهذه الرواية لأن (براون) وهو الذى كان صديقا حميما للسيد لم يشر إلى سفره إلى أمريكا فى ترجمته له فى كتابه (الثورة الفارسية)، ويقول المستر بلنت وهو صديق أيضا للسيد جمال فى كتاب «التاريخ السرى»:

«ولقد ذهبت عبثا كل الجهود التى بذلتها لمعرفة مقر السيد جمال الدين فى أمريكا، حيث قيل لى إنه ذهب إليها بعد أن قضى عامين يتجول فى الهند».

وقال ميشيل فى مقدمة رسالته : إن رسائل جمال التى لم تنشر والتى أتيح لنا الاطلاع عليها تدل على أنه لم يكن من الممكن أن يقوم بهذه الرحلة.

وسواء تحققت رواية سفره إلى أمريكا أم لم تتحقق فنحن لا يعنينا من ذكر البلاد التى سافر إليها إلا ما تركه من الآثار والأعمال التى ترغمنا على الاعتراف بوجوده فيها.

وعلى كل فقد بارح السيد جمال الدين بلاد الهند فى منتصف سبتمبر سنة ١٨٨٣م، بعد أن قضى فى كلكتا ما يربو على سبعة أشهر فى معزل عن الحياة، قطع عنه البريد فيها، ومنعت رسائله، وحرَّموا عليه قراءة الصحف. ومن هو مثل جمال الدين لا يستطيع أن يمضى عليه يوم بلا اطلاع على الصحف، ودون أن يلم بأخبار العالم الإسلامى، فمضت عليه تلك المدة وكان يعتبر نفسه أنه فى مقبرة مظلمة.

أطلق سراح السيد بعد احتلال انجلترا مصر، فسافر من الهند بحرا عن طريق البحر الأحمر قاصدا (لندن) فودعه رجال الهند وعلماؤها أحسن وداع وأثنوا عليه بأطيب عبارات الثناء.

ولما وصل السيد إلى - بورسعيد - كتب إلى الأستاذ الإمام كتابا أخبره فيه بسفره، وذكر له المدينة التى سينزل بها، وكان الإمام قد حكم عليه بالنفى من القطر المصرى وملحقاته لمدة ثلاث سنوات كما حكم على كثير من تلاميذ الحكيم الذين اتهموا فى الثورة العرابية إلى مدد مختلفة من سنة إلى عشرين سنة وكانت تهمهم - جريمة العصيان.

وصل السيد جمال لندن عاصمة بلاد الإنجليز، وأقام بها أياما فلم يطب له المقام فيها لأن الإنجليز عملوا على اضطهاده وتعذيبه، لأن الذين لم يقبلوه فى داره وحاربوه فى بيته لا بد أن يعملوا على رحيله من عاصمة بلادهم.

وقد التقى السيد جمال الدين فى لندن بالفيلسوف الكبير «هربرت سبنسر» فسأله هذا قائلا: ما هو العدل؟

فأجابه السيد جمال قائلا : يوجد العدل عند ما تتعادل القوى.. وإنما أجاب هذا الجواب لأنه يعلم أن الفيلسوف الإنجليزى لا ينتظر غير هذا الجواب، وأن التبحر فى الخيال أو التعلق بأهداب المثل العليا فى وصف العدل لن يجدى لدى فيلسوف أمة عرفت بما عرفت به الأمة الإنجليزية.

فدل السيد جمال بهذا على أنه رجل عمل، وأنه داهية فى السياسة، وأنه سريع البديهة، قوى الحجة، مشتعل الذكاء بعيد المرمى.

يوجد العدل عندما تتعادل القوى ! أما إذا تفاوتت فيسقط العدل ولا يبقى له وجود. أما إذا تفاوتت فلا شك فى أن يلتهم القوى الضعيف، أما إذا تفاوتت فتبدو الإنسانية فى ثوب التوحش، أما إذا تفاوتت فالحق للقوة !

فى باريس

غضب الإنجليز فى وجه السيد جمال فلم يقبل البقاء بينهم، فانتقل إلى باريس عاصمة فرنسا تاركا لندن غير مبال بمن فيها.

سافر السيد إلى باريس بعد أن أقام فى لندن مدة يسيرة لا ندرى عن مراسلاته مع تلميذه الإمام فيها شيئا.

وهناك فى باريس بدأ السيد/ جمال حياة جديدة لخدمة الإسلام والشرق. وكتب فى الصحف الفرنسية مقالات زلزلت الحكومات الاستعمارية، وبالأخص الحكومات البريطانية، وقابله هناك الفلاسفة والحكماء الذين أعجبوا به واعترفوا بقوته، وقدرته. نذكر منهم «هانوتو»، و«أرنست رينان» الذى دار بينه وبين السيد جمال حوار فى امهات

الصحف الفرنسية - جريدة الديبا - فى موضوع الإسلام والعلم، وكانت المناقشة تدور بينهما حول صلاحية الإسلام وقابليته للمدنية الحديثة.

وقف السيد جمال للفلاسفة يناضل مع الحق، ويدفع الباطل، يدافع عن الضعفاء ويعمل على رفع الظلم. وقف لهم مدافعا عن الإسلام مثبتا لهم - ما هو من الحقيقة بمكان - أن الإسلام متمش مع المدنية فى حدود المعقول ، وأنه دين عام خالد.

وقف السيد جمال موقفا يغبطه عليه كل فيلسوف، فأكبروا فيه عبقريته وسعة علمه وقوة حجته، مما جعل (رينان) يقول عنه بعد أخذ ورد ونقاش فى الموضوع افتتح بعده:

«يخيل إلىَّ من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه أننى أرى وجها لوجه أحد من عرفتهم من القدماء الفلاسفة، وأنى أشهد ابن سينا، أو ابن رشد، أو أحد من عرفتهم من أساطين الحكمة الشرقيين الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار»

ولقد دارت بعد ذلك مناقشة بين السيد، وبين (رينان)، و«نيوفيل جوتيه» اللذين ذهبا إلى أن العالم شطران، سامى، وآرى، يحاولان من ذلك استنباط خصائص المزاج العقلى فى كل منهما، ثم ذهب بعضهم إلى أن العقل السامى يجمع بين الأشياء متناسبة وغير متناسبة بدون ارتباط بينها. أما العقل الآرى فهو يؤلف بين الأشياء بارتباط يصل البعض بالبعض ولا ينتقل من أمر إلى أمر إلا بعد تدرج.

فانبرى لهم السيد جمال الدين وصدهم عن هذه الآراء مثبتا لهم أن مسألة التفريق بين المزاجين السامى والآرى إنما هى كالشعوب ترجع فى الحقيقة إلى العصبية أكثر من رجوعها إلى العلم.

ولم تنقطع المناقشات فى هذا الموضوع بعد وفاة السيد جمال، بل وقف لصدهم ومهاجمتهم الأستاذ الإمام محمد عبده، وقد وضع رسائله فى هذا...

هذا ولقد كتب السيد جمال مقالا ضافيا عن الإنسان الراقى، تحت عنوان «الإنسان الراقى ملاك أرضى»

جاء فيه فما يلزم الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات تَرَفُّع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية، واستنكافه عن ملابسة الصناعات الحيوانية، ولا ريب أنه كلما قوى هذا الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات فى صفاتها، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه إلى العالم العقلى، وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بأوفر الحظوظ، حتى قد ينتهى الحال إلى أن يكون واحدا من أهل المدنية الفاضلة، يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبة، وأصول العدالة. وتلك نهاية السعادة الإنسانية فى الدنيا، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها.

فهذه العقيدة أعظم صارف للإنسان عن معارضة الحمير الوحشية فى معيشتها، والثيران البرية فى حالتها، ومضاربة البهائم السائمة والدواب الهائمة، والهوام الراسخة، لا تستطيع دفع المضار ولا تهتدى طريقا لحفظ حياتها، وتقضى آجالها فى دهشة الفزع ووحشة الانفراد.

هذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الإنسان من التقاطع المؤدى لافتراس بعضهم بعضا، كما يقع بين الأسود الكاسرة، والوحوش الضارية، والكلاب العاقرة، وأشد مانع يدفع صاحبها من شاكلة الحيوانات من خسائس الصفات، وهذه العقيدة أنجح داع للعقل فى استعمال قوته، وأقوى فاعل فى تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل.

إن شئت فارمِ بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد، بل يظنون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم

من ضروب الدنايا والرذائل، وإلى أى حد تصل بهم الشرور، وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم، وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية.

بهذا الأسلوب كان السيد جمال يخاطب الفلاسفة والعلماء ويكتب فى أمهات الصحف والمجلات.

فلينظر من شاء فى نواحى الرجل، وليتخذ من أحواله الجزئية سبيلا لحكم عام يجعله ميزانا.

كان السيد جمال كما رأيت يستطيع أن يناضل أكبر فلاسفة الغرب، من الذين يتشدق كثير من الناس بأنهم يعلمون بعضا من بحوثهم ويحفظون كثيرا من مأثورهم، كان السيد جمال يناضل هؤلاء ويحاججهم فى كبريات المسائل التى تعد أمهات الشئون الاجتماعية والسياسية، والتى هى مثار الخلاف فى كثير من فروع البحوث فى الاجتماع والدين والسياسة.

كان السيد جمال الدين يدافع هؤلاء الفلاسفة فيد فعهم إن لم يصرعهم ثم يبقى بعد على كرامة الشرق، ويحافظ على قواعد الإسلام، ذاهبا بها فى جو السماء ضاحية واضحة ظاهرة ظافرة قاهرة حتى ينظر إليها - من كانت هى أحط الشئون فى نظره - بنظره إلى أكبر معبود مقدس، وكذلك استطاع السيد جمال أن ينبه العالم أجمع إلى جمال الإسلام وجلاله وعزته وكبريائه.

ناحية فى جمال الدين لا يقوم بها سواه، إلا من نفخ فيه من روحه، من أمثال الأستاذ الإمام، وهو مسلك له خطورته، وهو العماد الذى قامت عليه دعوة الإسلام فدخل الناس فى دين الله أفواجا.

فرحمك الله ياجمال الدين فقد سددت للإسلام وللشرق ثغورا ما كان يسدها غيرك.

العروة الوثقى

بعد عام من مقام السيد جمال الدين فى أوربا متنقلا بين مدنها، أى فى سنة ١٨٨٤م، أرسل إلى تلميذه الأمام محمد عبده بالحضور - وقد كان منفيا فى بيروت بسبب الثورة العرابية - فأجاب دعوة أستاذه، وسافر توا إلى أوربا، ثم التقيا هناك فى باريس، وكان السيد جمال قد أنشأ جمعية من مسلمى الهند ومصر وشمال أفريقيا وسوريا وغيرها أسماها «جمعية العروة الوثقى» وأسندت الجمعية رياستها إلى السيد، وكان مقر هذه الجمعية مدينة باريس. وكانت مؤلفة من عقود كثيرة ولها قانون محفوظ فى الصدور لم يطبع خشية أن يعرفه من ليس من أعضائها، وكان هذا سببا فى فقدانه. وللجمعية يمين يقسمه الأعضاء عند الانتساب إليها، وها هو نصه :

أقسم بالله العالم بالجزئى والكلى، والجلى والخفى، القائم على كل نفس بما كسبت، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت، لأحكمن كتاب الله تعالى فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل ولأجيبن داعيه فيما دعا إليه، ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا نهى، ولأدعون لنصرته، ولأقومن بها ما دمت حيا، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا.

أقسم بالله مالك روحى ومالى القابض على ناصيتى المصرف لإحساس وجدانى الناصر لمن نصره الخاذل لمن خذله، لأبذلن ما فى وسعى لاحياء الأخوة الإسلامية، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة

الصحيحتين، ولأعرفنها كذلك كل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم فى عقد من عقودها. ولأراعينها فى غيرهم من المسلمين إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام فإنى أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين وآخذ على نفسى فى أثره مثل ما آخذ عليها فى المدافعة عن شخصى.

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى ألا أقدم إلا من قدمه الدين، ولا أوخر إلا ما أخره الدين، ولا أسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضررا يعود على الدين جزئيا كان أو كليا وألا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه، وعلى عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين. وما جهلته أطلب علمه من العارفين، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه إمكانى الوجودى. وأسأل الله نجاح العمل وتقريب الأمل وتأييد القائم بأمره والناشر لواء دينه.

لم يمر وقت على إنشاء تلك الجمعية حتى رغبت فى أن يكون لها مجلة تعبر عن أغراضها وغايتها؛ فعهدت إلى السيد جمال وتلميذه الإمام محمد عبده بإنشاء «مجلة العروة الوثقى» فكانت هذه المجلة جامعة بين روح جمال الدين وقلم الشيخ محمد عبده، فجمعت بين قوة المعنى ورصانة اللفظ، وكان لكتابتها أثرها الفعال فى المسلمين لما كانت تدعو إليه من احياء مجد الإسلام. والعمل على رفع شأن المسلمين، فأخذت من قلوب الأمم الإسلامية والبلاد الشرقية مالم يأخذه وعظ الواعظين وإرشاد المرشدين. فأيقظت الروح الوطنية وأحيت فيهم شهامة العرب وعزتهم، ونبهتهم إلى خطر الاستعمار وسياسته، فكانت لا تقع فى يد مسلم ويقرأ فيها ما أصاب المسلمين من التأخر إلاّ ويحز الألم فى نفسه وتجيش النخوة الإسلامية فى صدره، وكان لها أبلغ التأثير فى تغيير مجرى حياة الكثيرين من علماء الإسلام وزعماء الإصلاح فيه.

وبينما العالم الإسلامى يتمنى لها البقاء طويلا ويرجو لها الذيوع والانتشار إذ بالإنجليز يتنبهون إلى ما فى تلك الجريدة من الأفكار الحرة المهيجة لشعور المسلمين والمثيرة لخواطر الشرقيين ضد الاستعمار؛ فعملوا على منعها من الديار المصرية والهند، ومعاكستها فى كل مكان حتى خفت صوتها ولم تمض سنة على ميلادها، إذ طلع أول عدد منها فى ٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ الموافق ١٣ من مارس سنة ١٨٨٤م وصدر آخر عدد منها فى ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٨٤م فلم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددا، ووقع خبر مصادرتها على البلاد الإسلامية كالصاعقة يصم الآذان دويها، وقوبل عمل إنجلترا بالاستهجان والاستنكار فى جميع الأنحاء.

لم يكد يظهر العدد الأول من الجريدة حتى انعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة واهتم بالبحث فى شأن «العروة الوثقى» ثم، أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضيا عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية وتراقب جولاتها فى تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البوسطة يلزمها بالدقة فى ذلك، ثم أعلنت الجريدة الرسمية بعد نشرها الخبر أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها.

ولكن هذه الوعود وتلك التهديدات وذاك الاحتياط الشديد من جانب البوسطة لم يمنع الجريدة من دخول مصر.

نشرت الصحف خبر هذا الأمر ومصادرة الجريدة فاطلع السيد جمال عليه هو وتلميذه الإمام فكتبا مقالا ينددان فيه بسياسة الإنجليز نقتطف منه الآتى :

لا نظن أن أحدا من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم، ولا يختلج فى صدورنا أن مصريا من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد، يرى فيه جانبا من العدل.

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سعى - بل كل السعى - لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا. وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طرق التأهب.. ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شىء من الاختيار، والمدير لرحى القهر عليهم هو عمال الإنجليز.

هذه هى جريدة العروة الوثقى.. جريدة، السياسة والأدب والحكمة والفلسفة والتاريخ.

كان أسلوبها رزينا بليغا عذبا سلسا، فيه قوة ولين ومعان بلغت حد الدقة والكمال كأنها ليست من أفكار البشر بل هى عن الكثير منهم أبعد منالا من الجوزاء فى أفق السماء.

وكانت كالصاعقة الشديدة التى تنزل بالقوم فتجعلهم فى ذهول وحذر، وتتركهم وبهم ألم ممض وفى نفسهم حزن عميق، فهى تزلزل الاستعمار ودوله وتقوض عرش الاستبداد.

وهذه هى جريدة العروة الوثقى التى اهتز منها الإنجليز حكومة

وشعبا وجعلوا منها خصما لهم يكافحونه ويحاربونه، تارة بالمصادرة وطورا بالكتابة عنها والدعاية ضدها، وهى رابضة لهم مزعزعة لعرشهم مستهينة بقوتهم ساخرة بأوج عظمتهم.

هذه هى الجريدة التى ما وقف الانكليز على خبر إنشائها حتى أخذت أرباب الصحف فيها الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الإنجليز ونفوذها فى بلاد المشرق وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول فى البلاد الهندية والمصرية، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الحكومة العثمانية بالحجر عليها، ولم ينل كل هذا منها شيئا ولا حرك ساكنا ولم يمنعها قانون مصادرتها عن تلك البلاد من الدخول فيها وتداولها ومدارستها.

نعم كانت كلها قوة وكلها إلهامًا، يقرؤها القارئ فما يكاد ينتهى حتى تتأجج فى أرجاء صدره النار، ويغلى فى عروقه الدم، فتشتعل فى نفسه ثورة المستميت لاسترداد حقه.

تلك هى الجريدة وهذا مقدار تأثيرها فى نفوس الأفراد والشعوب، فالعقول المستنيرة والأفكار اليقظة والأمم الناهضة والشعوب المتحدة والهمم القوية والأخلاق القويمة، كل هذا نتيجة العروة الوثقى.

جهاد السيد جمال فى سبيل السودان

ظل جمال الدين طيلة حياته العدو اللدود لبريطانيا، فكان يناصبها العداء فى كل بلد يحل فيها، ويخلق لها فى مستعمراتها المشاغبات والثورات، وينعى على سياستها فى الشرق الإسلامى، ويتحين لها الفرص لتقويض دعائم سلطانها وإقصائها عن بلاد الشرق، فيما قامت ثورة «محمد أحمد» المعروفة بالثورة المهدية بعد احتلال إنجلترا مصر حتى اتصل الحكيم وتلميذه الإمام وهما بأوربا أيام كانا يصدران العروة الوثقى «بمحمد أحمد» القائم بدعوة المهدية، ووقفا على ما كان يرد لإنجلترا من رسائل اتباعها فى مصر والسودان من الأخبار، فأخذا يعظمان أمره ويبالغان فى قوته ومقدرته، ويوهمان الإنجليز بأن المهدى هذا هو صاحب الأمر النافذ والكلمة المطاعة فى القبائل السودانية، وأنه رجل شديد الذكاء واسع الخبرة قوى الحجة محبوب من العامة والخاصة تهابه الناس ويجله الكبراء.

حتى أقنعاها بترك السودان أو الانسحاب منه، وفعلا شرعت حكومة الإنجليز فى هذا فعمدت إلى إبرام معاهدة بينهم وبين السودانيين لم يحل دون إمضائها إلا وفاة محمد أحمد هذا؛ فنكصت إنجلترا عن عهدها، ونقضت ما أبرمته من قبل.

وكان غرض السيد فى المسألة السودانية إخراج الإنجليز من مصر

والسودان. فإذا لم يتيسر ذلك سعى إلى إقناعهم بترك السودان بتكبير الثورة المهدية فى نظرهم والتهويل فى خطرها.

فإذا ما تم ذلك استطاع أن يذهب السيد وتلميذه إلى السودان خفية، وينظما فيه الثورة توسلا لإنقاذ مصر وتأسيس دولة قوية يعتز بها الإسلام والشرق.

وهكذا جاهد كل من جمال الدين ومحمد عبده فى سبيل إنقاذ مصر ورفع راية الإسلام وتنكيس دولة الإنجليز فى البلاد الإسلامية مما اضطر اللورد « سلسبورى» ، و«تشرشل» أن يستدعيا جمال الدين للتفاهم معه فى مسألة المهدى، فأظهر لهما خطأ إنجلترا السياسى خصوصا نحو دول الإسلام فى الشرق، فقالا لجمال الدين إن بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رأيك قدره، ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح لنا به الظروف، لذلك تصورنا أن نرسلك إلي السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدى، وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا فيه، فرد عليهما السيد جمال ساخرا إذ قال : تكليف غريب، وسفه فى السياسة ما بعده سفه.. اسمح لى ياحضرة اللورد أن أسألك هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان؟! مصر للمصريين والسودان جزء متمم لها، وصاحب الحق الخليفة الأعظم حى يرزق. ولديه من الجيش المادى والمعنوى ما يتذلل معهما كل صعب وفتنة فى أجزاء الممالك الإسلامية. وإن كان هدفكم هو مجرد الإصلاح فإنى ألفت نظركم إلى إيرلندا وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ليتسنى لها سلطة الإصلاح الحقيقى لبلادهم، فلماذا لا تجيبونهم وهم أقرب إليكم، وبينكم وبينهم من الجامعات ما هو معدوم لكم فى مصر والسودان وغيرهما من ممالك الشرق.

وقد كتبا مقالا قالا فيه :

«لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وأكثر سوادا وقهرتها بقوة السلاح، وإنما العار الذى لايمحوه كر الدهور ولا ينسيه تطاول الأزمان هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدى العدو من نواصيهم.

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية ونحمل عوامل الشهامة الإسلامية ونوقد ميزان الغيرة الجنسية، لنخيب آمال الإنجليز ونرد كيدهم فى نحورهم ونقذف بأولئك المغفلين الذين يميلون إليهم خارج تخوم هذه الحياة، ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم، ويذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون، هذا إذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق فى محبة الأوطان ورعاية مصالحها، فإن تابوا وأصلحوا وأنابوا كان الحق ظهيرهم وكان الله دليلهم ونصيرهم».

جمال الدين في فارس

خفت صوت جريدة العروة الوثقى كما خفت صوت «جماعة أم القرى» من قبل، وبعد أن صودرت الجريدة رحل الإمام محمد عبده إلى سوريا - وقد كان جمال استدعاه إلى باريس ليشتركا معا فى تحريرها كما تقدم - ثم مكث بها مدة يسيرة انتهت بها مدة نفيه، فتوسط له بعض رجالات مصر لدى الخديوى فأبيحت له العودة إلى مصر.

بقى السيد جمال الدين فى أوربا متنقلا فى بلادها بين لندن وباريس، كاتبا فى المجلات والصحف مناديا الفضيلة مستغيثا بالعدل مظهرا للرأى العام تصرفات الإنجليز فى الشرق. إلى أن تألفت لجنة من (المستر بلنت)، و(اللورد تشرشل) ، (اللورد سلسبرى) للتفاهم مع السيد جمال الدين فى مسألة السودان بعد ثورة المهدى. كما تقرر أيضا أن تذهب بعثة بريطانية بصحبة السيد إلى الأستانة للتفاهم مع السلطان عبدالحميد، للوصول إلى اتفاق يتضمن الجلاء عن مصر وتحالفها مع تركيا وإيران وأفغانستان ضد روسيا.

ولكن بعد أن استعد الحكيم للسفر، وبعد أن حجزت له تذكرة السفر نقضت إنجلترا عهدها ورفضت سفره، فاغتاظ السيد لهذا واشتد حنقه عليهم وبقى مستمرا فى كتاباته وخطاباته المثيرة، باحثا فى سياسة روسيا وإنجلترا والدولة العلية ومصر، وترجمت جرائد إنجلترا كثيرا منها لتتعرف ما يكتبه السيد ضدها من المساوئ ويفند من المظالم.

بقى على هذا مجاهدا فى الحق داعيا للعدل عاملا لإنصاف الدول الضعيفة إلى أن عزم على السياحة فى البلاد العربية من نجد فالحجاز فالعراق، وبينما هو على هذه الأهبة استقدمه شاه الفرس إذ ذاك المرحوم ناصر الدين شاه على لسان البرق وشدد فى الدعوة فذهب السيد جمال فى جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ هـ (فبراير سنة ١٨٨٦م).

ذهب السيد إلى فارس بعد أن مضت مدة طويلة وهو بعيد عنها.. سار السيد جمال قاصدا (طهران) فالتقى فى أصفهان بالأمير (ظل السلطان) فلاقى منه إكراما واستقبله استقبالا رسميا، حتى إذا وصل - طهران - استقبله الشاه أحسن استقبال، فما كادت قدماه تطأ أرضها حتى استقبل استقبالا باهرا من الأمراء والعلماء والعظماء وأشادوا بفضله، وعينه الشاه وزيرا للحربية مع صفة مستشار خاص للشاه، على أن يرقيه بعد قليل إلى منصب الصدارة، وأكثر الشاه من الثناء على جمال حيثما ذكر حتى فى بلاطه وبين أهله وأولاده.

وكان جمال الدين قد درس أخلاق الأمم وعرف تواريخ الدول وتدبر أحوال السياسة على اختلاف الأمكنة والأزمنة مع بلاغته وقوة برهانه، فقام بأعباء النظارة والاستشارة خير قيام، وفى نفس الوقت كانت لهجته شديدة وصريحة بلزوم تغيير كل قديم من إدارة الحكومة الفارسية، وبضرورة الأخذ بإنهاض الأمة، ومشاركتها فى حكم ذاتها، فالتف أمراء الفرس وعلماؤها حوله، وأقسموا له أنهم يصدعون بما يأمر به، فأشار بعدم التسرع. . فنال منزلة عند أهل الفرس قل أن ينالها غيره، فأصبح منزله حلقة علم يؤمها سراة البلاد ووجهاؤها ويتسابقون إلى سماع حديثه. فتضاعف عدد أنصاره ومريديه لغزارة علمه وسحر بيانه وفصاحه لسانه وغيرته القوية على مصلحة البلاد، واتسع نفوذه وأصبح أمره مطاعا وطلبه مجابا، ذا سلطان قوى وشوكة شديدة لا على

المستنيرين وأصحاب المناصب فحسب ولكن على كل الناس، فخاف الشاه على سلطانه، وخامره ريب من أمره، فتنكر له.. وقام العلماء الجامدون من جانبهم بما طبعت عليه نفوسهم من الحقد والحسد يضطهدون جمال الدين ويشوهون سمعته، ولكن السيد جمال ذا الإحساس الشديد والنفس الأبية أحس بهذا التشنيع من جانب الأمير والعلماء فاستأذن الشاه فى السفر إلى روسيا لتجديد الهواء، فلاقى هذا الطلب ارتياحا فى نفس الأمير وسرعان ما أذن له.

جمال الدين فى روسيا

سافر السيد جمال الدين إلى روسيا ونزل «موسكو» فلاقاه أهلها بالتجلة والإكرام لما سبق إلى مسامعهم من شهرته، ثم شخص منها إلى «سان بطرسبرج» عاصمة روسيا، فاستقبل فيها بالحفاوة والترحاب وتعرف بأعاظم رجالها من العلماء والسياسيين، وكان فيها موضعا لإكرام القيصر، وتقدم إليه رجال الصحافة طالبين منه أن يكتب لهم فكان لمقالاته عن سياسة أفغانستان وإيران وتركيا وبريطانيا أثر عميق فى الدوائر السياسية.

وكان مما خدم به المسلمين هناك إقناع القيصر بحسن معاملة المسلمين، والإذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية فأذن بذلك، وقد نشرت جريدة (الفلاح) التى كانت تصدر فى القاهرة مقالا فى هذا الموضوع.

.. ولقد أوسعوا له فى المملكة الروسية مجالا، وسمعوا لأحاديثه، وانتصروا لسياسته، حتى أن القيصر دعاه لقصره وتحادث معه طويلا، وسأله عن سابق اختلافه مع الشاه، فذكر له رأيه فى الحكومة الشورية ونفرة الشاه منها، فقال قيصر : إنى أرى الحق فى جانب الشاه، إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟! فأجاب جمال بجرأة «أعتقد ياجلالة القيصر أن عرش الملك إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء له فذلك خير له من أن تكون أعداء»، فغضب القيصر،

وقام من مجلسه، وودع السيد بغير الحفاوة التى استقبله بها، ثم أوعز إلى رجال بلاطه أن يسرعوا متلطفين بإخراجه من روسيا .

سفره إلى فارس :

وبينما هو فى (بطرسبرج) زارها شاه إيران ناصر الدين وأظهر هناك رغبة فى لقاء السيد جمال، فبلغ السيد ذلك فرفض ولم يحفل به.

واتفق إذ ذاك أن فتح معرض باريس سنة ١٨٨٩م فشخص جمال إليها، وكان قد سبقه الشاه ليشاهد المعرض، فالتقيا فى «ميونخ» عاصمة «بافاريا» وكان الشاه عائدا من باريس، فدعاه إلى مرافقته وألح عليه الشاه - مع العلم بأنه هو الذى ارتاب فى أمره مما جعله يسافر إلى روسيا - فى العودة إلى فارس حتى لان له وأجاب الدعوة، وسار فى معيته إلى فارس. فلم يكد يصل طهران حتى عاد الناس إلى الاجتماع به والانتفاع بعلمه وقوبل بمثل ما قوبل به فى المرة الأولى بل أكثر.

وبطول إقامته واختلاطه بمحبيه جمع بين السلطة العلمية والعملية، وبدت نهضة إصلاحية، حيث تولى رئاسة الوزارة، ولقد قال السيد جمال نفسه فى بعض مجالسه فى الأستانة للشيخ عبدالقادر المغربى: إن بعض الكبراء من ألمانيا وغيرهم جمعونى بالشاه ناصر الدين فرغب إلى أن أذهب معه إلى بلاده فيجعلنى رئيس وزارته، فأبيت لأنى عزمت على الذهاب إلى معرض باريس ولا أحب أن أنقض عزمى، فألح على بالذهاب معه، وكان يقول عنى: هذا رجل العالم السياسى الحربى الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب. فقال له الشيخ عبدالقادر : كيف يدعوك إلى ذلك وأنت مشهور بشدة رغبتك فى تشييد عقائد أهل السنة! فقال السيد : جنون وهوس منه. وبعد أن مكثت مدة فى بلاده طلبت الذهاب إلى أوربا فمنعنى، وسمعت منه كلاما خشنا فى

حقى وآراء رديئة مآلها الحجر على فى بلاد إيران فأعملت الحيلة وذهبت إلى مقام عبدالعظيم وهو من أحفاد بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آمنا. فمكثت هناك سبعة أشهر، كتبت فى أثنائها عدة مقالات وحررت فى الجرائد جملة كتابات فى مثالب الشاه المذكور وحث الشعب على خلعه».

بقى السيد جمال الدين هذه المدة وما ارتاب الشاه فى أمره كأن سياحته فى أوربا محت كثيرا من شكوكه، فكان يقربه منه ويوسطه فى قضاء كثير من مهمات حكومته، ويستشيره فى سن القوانين ونحوها، وفى هذه الآونة رغب إليه المتفقهون من علماء فارس وساستها أن يرسم لهم قوانين دستورية تجرى الأحكام فى نصابها من النصفة والعدل، وتلزم الحكام العمل بمقتضاها، فأسر جمال الدين ذلك فى نفسه ولكن لم يستطع كتمانه لأنه كان لا يحبس فكرة ولا يحتاط بقوة نفسه أن يجهر بما يجيش فى صدره، وكان يجد فى إدارة أحكام العجم مالا يطيق عليه صبرا. فتلطف فى عرض هذا المشروع على الشاه فاستصوبه وتقبله قبولا حسنا ومال إلى الموافقة عليه. بل طلب من السيد أن يسن ما يراه موافقا من القوانين، فاستجاب ووضع له القانون الأساسى لمملكة فارس، لتكون حكومة ملكية شورية.. ولما اطلع الشاه عليه عظم عليه الأمر...

ولكن تلك الموافقة شقت على أصحاب النفوذ، خصوصا الصدر الأعظم «ميرزا على أصغر خان» الملقب بأمين السلطان فما كان منه إلا أن أسر إلى الشاه أن هذه القوانين وإن تك لا تخلو من النفع فهى لا توافق حال البلاد، لأن الأمة غير متأهبة له فضلا عن أنه يؤدى إلى تقييد سلطة الشاه وربما كان سببا فى تقويض عرشه، فأثر ذلك فى نفس الشاه وبدأ يغير معاملته مع السيد جمال الدين ولم يلبث أن نكل عن قبول الدستور الذى قدمه له جمال. والذى رأى فيه أن أهل فارس

أوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابى ، فقال الشاه للسيد جمال: «أيصح أن أكون - وأنا ملك ملوك الفرس - كأحد الفلاحين؟!» فقال جمال : «اعلم ياحضرة الشاه، أن تاجك، وعظمة سلطانك، وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم مما هى الآن، والفلاح والعامل والصانع فى المملكة - يا حضرة الشاه - أنفع من عظمتك ومن أمرائك، واسمح لإخلاصى أن أؤديه صريحا قبل فوات وقته.. لا شك - ياعظمة الشاه - أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون ملك، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية»!

ولكن هذا الحديث الصريح من جمال جاء مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم، وخوف الشاه منه إذ قال : «إن ما يسنه جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئا، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه، ويعطيه للسوقة والفلاحين».

فلما رأى جمال الدين ذلك، وشعر بتغير معاملة الشاه له، وأحس بالدسائس التى توضع فى طريقه، استأذن الشاه فى السفر إلى بلدة شاه عبدالعظيم، فأذن له، وما كاد السيد جمال يصل إلى الضريح حتى تبعه جم غفير من العلماء والأدباء والوجهاء والعظماء، واستمروا يختلفون إليه فى مقامه ذاك يفاوضونه فيما أشربته قلوبهم من أمر القوانين والأحكام، وكان هو يخطب فيهم ويستحثهم على إصلاح حكومتهم، فلم تمض ثمانية أشهر على مقامه بهذا الضريح حتى ذاعت شهرته فى أقاصى بلاد الفرس، وشاع نبأ عزمه على إصلاح إيران. وكان لهذا الخبر وقع حسن فى جميع أطراف البلاد .. بقى السيد جمال يلاقى تلاميذه ومريديه كل صباح وكل مساء، ولكن منعه عن مواصلة اجتماعاته بمحبيه واختلاطه بهم مرض أصابه، وألزمه الفراش. وكان الشاه قد تخوف عاقبة سلطان جمال، فوجه إليه خمسمائه فارس مدججين

بالسلاح، فقبضوا عليه وهو مريض فى فراشه، فقاده خمسون فارسا منهم مكبلا بالحديد إلى «خافقين» على الحدود العثمانية منفيا، فما كان من الشعب حين بلغه حادث القبض على السيد جمال؛ إلا أن صار فى هرج ومرج شديدين، فانتشرت المشاغبات، وكثرت الرسائل والمنشورات، وتواردت على الشاه كتب يخيرونه فيها بين أمرين لا ثالث لهما :

١ - إما أن يجرى على مقترحهم.

٢ - وإما أن يخلع نفسه عن الملك.

ولم يكتفوا بهذا بل اشتدت ثورتهم، وطاح بهم الغضب، فبلغ بهم الأمر أن حاصروا الشاه يوما فى قصره.

ونعود إلى جمال، وهو على الحدود العثمانية، وقد تفاقمت عليه العلة بسبب اشتداد البرد عليه فى تلك الديار فرحل إلى البصرة.

جمال الدين فى العراق

سافر السيد جمال الدين إلى البصرة، لما اشتد عليه المرض. وبقى هناك حتى أبل من مرضه ودب فيه دبيب العافية.

بقى فى البصرة هذه المدة، وهو يذكر الشاه بكل سوء، ولم يمنعه مرضه من أن يعمل ضده.

وفى هذه الفترة قلت مصادر المال فى البلاد الإيرانية، ونضب معينها لما كان عليه الشاه من انكباب على الشهوات، وإسراف طائل فى أموال الرعية التى كانت تدفع من دمائها، وأصبح الشاه فى احتياج واضطرار شديدين إلى المال، فأخذ يتاجر بحقوق أمته، فباع للبارون «يوليوس لوترن» سنة ١٨٨٩م حق تأسيس بنك شاهانى إيرانى، وحق إصدار «البنك نوت» باسم الدولة، وباعه حق استخراج المعادن. وأسرف الشاه فى منح الامتيازات وبيع حقوق البلاد، وقد تشجع المستر «تالبوت» فأخذ احتكار التمباك فى مارس سنة ١٨٩٠م لمدة خمسين سنة بشروط بخسة تعود كلها على المحتكر وعلى جلالة الشاه.

ساعتئذ صمد له جمال، ووقف مجهوده علي ضرب الشاه من تلك الناحية، فملأ الصحف كتابة، والمنتديات خطابة، ثم عمد إلى إرسال خطاب إلى كبير مجتهدى الشيعة الحاج ميرزا «محمد حسن الشيرازى» عدّد فيه مساوئ الشاه، واستيلاء العته علي عقله، وشرح فيه مضار

امتياز شركة التمباك، الذى يقضى بامتياز الأجانب بأهم محصول بلاد العجم، فكان هذا الخطاب من أكبر الأسباب التى دعت رئيس الشيعة أن يصدر فتواه التى أفتاها ببطلان هذا الامتياز.

وعلى أثر ذلك تقدم لفيف من الأحرار العقلاء بالنصح والرجاء للشاه للعدول عن التفريط فى حقوق البلاد، فلم يسمع الشاه لهم نصحا، بل أخذ يعتقل الزعماء ويضطهدهم ويسجنهم. فأرسل حجة الإسلام المرحوم الحاج ميرزا حسن شيرازى المجتهد الأعظم إلى الشاه كتابا فيه ما فيه من التحذير، وأن إعطاء الامتيازات، وبيع حقوق الأمة للأجانب من الأمور التى يحرمها الدين، وتأباها الشرائع والقوانين، ولما يئس المصلحون والأحرار من إصلاح الشاه أفتى حجة الإسلام الحاج ميرزا حسن شيرازى فتواه الشهيرة بتحريم التمباك، فأجاب الإيرانيون جميعا دعوة المجتهد الأعظم، وفى طرفة عين أطاعوا أمره ولبوا نداءه، ولم يترددوا لحظة، على شدة تعلقهم بالتمباك، وشغفهم الشديد بتدخينه فى النار جريا على عادتهم. فمخازن التمباك أقفلت أبوابها، وأبى المتعهدون بيعه، وامتنع الطالبون والمستهلكون عن شرائه، وعمد كل مدخن إلى نارجيلته فهشمها، وإلى ماعنده من التمباك فنبذه قصيا، وفى جميع البيوت والأكواخ، وحتى فى قصر الشاه نفسه لم تكن لترى مدخنا واحدا أميرا كان أو حقيرا، حتى أن الشاه نفسه طلب صباح اليوم التالى للفتوى التى صدرت بالتحريم، وهو فى مجلس من وزرائه نارجيلته، فتقدم إليه رئيس الخدم مندهشا معتذرا وقال للشاه :

لقد صدرت يا مولاى فتوى حجة الإسلام بالتحريم فلم تبق فى القصور الملكية نارجيلة ولا تمباكا.

فغضب الشاه وقال : وهل استأذنت مولاك قبل الإقدام على ذلك؟
فقال رئيس الخدم (بشجاعة وسكون) : **لقد أمر الشرع فلا حاجة بنا لاستئذان السلطان!**

وفى أواخر ديسمبر سنة ١٨٩١م أنذرت الأمة حكومة الشاه بضرورة إلغاء امتياز التمباك، وإلا فيقع بالأجانب أعظم ضرر، ولجأت الحكومة لسائر وسائل الحيلة والقوة والتهديد وإيذاء الزعماء، فلم تفلح، وهدد الشاه بنفسه مقام المجتهد فلم يزدد المجتهد إلا تمسكا بفتواه.

وفى أوائل يناير سنة ١٨٩٢م أذعن الشاه وحكومته لرغبة الأمة وتم الاتفاق بين الشاه وشركة الاحتكار على بطلان الامتياز الممنوح للمستر تالبوت، فكانت صدمة مؤلمة للنفوذ الإنجليزى فى إيران.

لقد كان فى حادثة احتكار التمباك الإيرانى درس نافع عظيم لأوربا ذات المطامع الشعبية، التى أطلقت لنفسها العنان فى الشرق تسلب خيراته، وتنتهب أطايبه، وتدس بين أهله أسباب الشقاق والفراق والنفاق، لتتمكن من نصب شباكها ولتظفر بالصيد وتبطش بالفريسة، والشرق عنها غافل لاهٍ بصغائر الأمور.

نعم لقد كلف بطلان امتياز التمباك أهل إيران الشيء الكثير من النفوس والأموال، ودفعت البلاد لشركة الاحتكار «تالبوت وشركائه» نصف ميلون جنيه تعويضا، ولكنهم مع ذلك كسبوا الحياة التى دبت فى نفوسهم، وهيأتهم للنهضة العظيمة التى قاموا بها فى سبيل حريتهم.

وبهذا أنقذ السيد جمال بلاد إيران من احتلال الإنجليز لها بإبطال مقدماته وهو امتياز التمباك؛ وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء فى بلاد فارس بما كان من قلب نظام الحكومة وتحويلها عن الاستبداد المطلق إلى الشورى.

ولكن السيد جمال. لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها، ولكنه أخذ يعمل على خلع الشاه وإسقاط حكومته بكل وسيلة ممكنة، وكان في نيته أن يعمل وراء الشاه حتى يقتل.

وبقى السيد جمال الدين فى البصرة حتى أبل من مرضه، وعاد إليه كامل صحته، فما شعر بهذا إلا وشد رحاله إلى لندن.

جمال الدين فى لندن للمرة الثانية

ذهب السيد جمال الدين إلى لندن للمرة الثانية، وقد أسس هناك مجلة شهرية كان يصدرها باللغتين الإنجليزية والعربية، أسماها «ضياء الخافقين» ملأ صفحاتها بما كان يكتبه فى أحوال فارس ومصر من مقالات فيها جرأة وفيها إقدام.

كان هذا أسلوب الحكيم وحده وهذا عمله الصحفى بمفرده، لذا نجد الشدة بادية فيه، والثورة بالغة حدها فى نفسه.

نعم بهذا كان السيد جمال يكتب وبهذا كان يخطب.

وما كان من الشاه عندما علم بهذه المقالات إلا أن أرسل إليه سفير إيران فى لندن راجيا منه الكف عن الكلام والكتابة فى حق الشاه وحكومته، وأخذ يسترضيه بكل ما يمكنه، حتى أراد أن يستميله بمال كثير قدمه إليه، فما كان من السيد جمال إلا أن رفض بإباء وشمم.

جمال الدين فى الأستانة

لم تطل مدة إقامة جمال الدين فى لندن فى المرة الثانية، إذ ورد عليه خطاب من «المابين الهمايونى» بواسطة رستم باشا سفير تركيا فى لندن يدعوه فيه إلى الأستانة. فاعتذر السيد بحجة أنه فى شاغل وقتى لإصلاح بلاده، فتعددت عليه الكتب. وشددوا فيها الدعوة وبالغوا فى الرجاء، فجاء كتابان : أحدهما إلى السفير «رستم باشا» والآخر للسيد جمال، وفيهما من الثناء والتحريض ما جعل جمال الدين يعدل عن الرفض، ويجيب الدعوة.. وقد تضمن كتاب السلطان إلى «رستم باشا» هذه العبارة «لا يقبل جلالته عذرا إذا لم تقنعوا جمال الدين بالمجىء إلى الأستانة ليقابله، ثم يعود إذا شاء» فأجاب بواسطة البرق «تلغرافيا» أنه سيتشرف بمقابلة جلالة السلطان ثم يعود.

فذهب إليها سنة ١٨٩٢م، وكان فى نيته أن لا يستغرق هناك أكثر من أيام ليعود إلى جريدته. وصل الأستانة فاستقبل من العلماء والساسة استقبالا حسنا، وكان فى انتظاره «ياور» السلطان، فلما وصل سأله : أين حقائبك ياحضرة السيد؟ فقال: «ليس معى غير حقائب الثياب، وحقائب الكتب» فطلب الياور أن يدله على مكانها ليعمل على الأمر بحملها، فقال السيد : «**صناديق الكتب ها هنا.. وأشار بيده إلى صدره - وحقائب الثياب هذه - وأشار إلى جبته**».. ثم قال : « كنت أول عهدى بالنفى أستصحب جبة ثانية وسراويل. ولكن لما توالى النفى صرت أستثقل الجبة

الثانية، فأترك التى على حتى تبلى فأستبدلها بغيرها»، لاقى السيد من السلطان عطفا ساميا فقربه السلطان وأخذ يتباحث معه فى شئون الدولة وفى حال الإسلام. وكان للحفاوة البالغة التى قوبل بها السيد جمال أثر عظيم فى نفسه. فعزم على البقاء فى الأستانة آملا أن يرشد السلطان إلى ما فيه إصلاح الدولة العثمانية والممالك الإسلامية ورفعة المسلمين وتخليصهم من أيدى الولاة الظالمين، فأعد له السلطان عبدالحميد قصرا فاخرا مؤسسا بأجمل فراش فى «نشان طاش» وهو من أرقى أحياء الأستانة. ورتب له مكافأة شهرية قدرها خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر.

قابل السلطان السيد جمال بهذه الحفاوة ليظهر أمام العالم الإسلامى أنه يرعى العلم والعلماء ويحترم المصلحين والمفكرين.

انقضت مدة وجمال الدين حظى عند السلطان، ولكن لم يلبث الأستاذ الصيادى أن وجه عليه حملاته عند مولاه حقدا عليه، وخوفا من أن ينزله مولاه تلك المنزلة التى هو فيها. فاندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة كما هو المتبع فى تنقص أقدار الحكماء والزعماء، كما تناول بالقدح كل من والى السيد جمال الدين وشايعه فى أفكاره، مثل : السيد «فضل العلوى الحضرى» أمير «ظفار»، والشيخ «ظافر المدنى الطرابلسى» شيخ الشاذلية. وهما كانا من المقربين لدى السلطان.

ومما اتهم به السيد جمال قوله مرة.. أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة، فعبر جمال عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية، ولكن أبا الهدى - غفر الله له - استنبط منها إلحادا وكفرا وكان جواسيس السلطان فى ذلك العهد يراقبون جمالا فى جميع حركاته، ويحصون عليه كل صغيرة وكبيرة، ومما يروى فى هذا الصدد أن السيد جمال اجتمع بالسيد عبدالله نديم فى منتزه «الكاغدخانة» وقابلا الخديو

عباس حلمي مصادفة، وتحدثوا سويا تحت شجرة هناك، فانتهز أبو الهدى ذلك، وقدم تقريرا إلى السلطان يخبره فيه أن جمال الدين وعبدالله نديم كانا على موعد مع الخديو عباس حلمي للاجتماع في «الكاغدخانة» وقد بايعاه تحت الشجرة على الخلافة!

ولكن هذا لم يؤثر في مكانة السيد جمال الدين لدى السلطان ولم يغير من عقيدته فيه، غير أنه كان بوده ألا يكون ذلك، وإنما الذي أدى إلى وجود الجفاء بين السلطان وجمال الدين وتعكير الجو بينهما استمرار جمال في القدح على شاه العجم في مجالسه العامة: مما حمل سفير إيران على رفع الشكوى، وقال له : «إن سفير العجم رجاني أن أتكلم معك في الكف عن الوقيعة في الشاه، وبناء على أملي فيك وعدته بأنك تكف عنه، وتتناسى ما مضى» ، وكان في يد السيد جمال الدين مسبحة، فجمعها في كفه، وقال بصوت جهوري: «امتثالا لإشارة السلطان فإني من الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين» فأعظم الحاضرون هذا القول في هذه اللهجة، ولكن جمال الدين لم يبال بذلك، لاعتقاده أنه يحق له أن يعفو، وأنه قد عفا عن الشاه. ولما خرج السيد جمال الدين من حضرة السلطان إلى حجرة رئيس القرناء قال له هذا بلطف : يا حضرة السيد إن إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تعبث بالمسبحة في حضرته ! فقال جمال الدين : «سبحان الله! إن جلالة السلطان يعبث بمقدرات الملايين من الأمة على هواه وليس من يعترضه منهم، أفلا يكون لجمال الدين حق في أن يعبث بمسبحته كيف شاء؟!»

بمثل هذا كان يخاطب السيد جمال الدين الملوك ولا يبالي ما يترتب على ذلك لأنه عول في أدوار حياته كلها أن يتكلم بما يرضي ضميره، وقد وقع في نفس السلطان شيء من هذا الكلام، كما أن السيد جمال لم

يكف بالنقد عن الشاه، فكثيرا ما كانت تستولى على السيد حدة الغضب وثورة النفس، وهذا تلميذه الإمام يقول عنه : «وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة، ففى أحد الأيام أراد أن يرسله السلطان إلى أوربا فى أمر سياسى ثم عدل عن ذلك، فأراد مقابلة السلطان، فقيل له إنه مشغول، فقال : لا أعود إلى مقابلته. ثم طلبه السلطان للمقابلة فامتنع وقال : هذه بتلك، ولما أقنعوه بكثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد ذهب وقابل السلطان، ولقد كان السلطان، اذا أغضب السيد جمال بعمل يرضيه بالقول وحسن المعاملة، ومن ذلك أنه لما وشى سعاة السوء بأن السيد أفشى سر السلطان إلى مكاتب التيمس، وكان قد زاره، كما وشوا إليه بأن السيد عنده (ديناميت) وأنه يحقر السلطان فى مجالسه، فأمر السلطان بتفتيش داره، فغضب السيد وذهب إلى سفارة الإنجليز وأراد أن يسافر من الأستانة فاستحضره السلطان بعد ذلك وقبله وقال له : (لايفرق بينى وبينك إلا القضاء المحتوم)، وأثنى عليه بخدمة الإسلام وقال له : (أحب أن أجعل وطنك الأستانة إذ لا وطن لك) وعرض عليه أن يزوجه فأبى، ثم أنزله فى زورقه الذى يتنزه فيه فى بحيرة «يلدز»».

وفى مرة أخرى كان السيد جمال طلب من السلطان المصرى فى الأستانة زيادة راتبه، فوعد السلطان بإمضاء ذلك، ثم أنسته أعباؤه، فغضب جمال، وطلب مقابلة السلطان، فأذن له، فاستجوبه السلطان عن سبب طلبه المقابلة، فقال السيد جمال : «لاشىء سوى أنى أتيت لأستميح جلالتكم من أن تقيلنى من بيعتى لك؛ لأنى رجعت عنها» فانتفض السلطان واهتز لهذا النبأ وقال : يا سيد جمال هل فكرت فيما تقول؟ قال : نعم، بايعتك بالخلافة، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد والأمر فى يده، فقال السلطان : سبحان الله أن أمرا طفيفا مثل هذا يحملك على نقض البيعة؟! أما كان يحسن أن تلتمس لى عذرا بكثرة

مشاغل السلطنة، وتذكرنى قبل نقض البيعة؟.. ثم أصدر أمرا بتنفيذ سابق وعده.

بقى السيد جمال الدين بالأستانة محاطا بالجواسيس مراقبا فى كل غدواته وروحاته حتى انتهى به الأمر إلى أن يسجن فى قصر من ذهب ومنع بأمر من السلطان من الاختلاط بأحد ومقابلة أى شخص، إلا بإذن خاص وهيهات أن ينال الإذن، وجاءه خطاب من الشيخ محمد عبده كتبه بطريق الكناية والتعريض ولم يضع إمضاءه فى آخره خشية مراقبة البريد، فغضب السيد وعاتبه عتابا شديدا فى خطاب أرسله إليه، هذا بعض منه، بعد الدعاء له بتثبيت الجأش :

تكتب ولا تمضى وتعقد الألغاز؟ من أعدائى؟ وما الكلاب كثرت أو قلت؟ إنك فى آفاق مكفهرة لا يميز فيها الخبيث من الطيب، ولا الشريف من الذميم، ولا الأنين من الكيس، وأمامك الموت ولا ينفعك الحذر من الأول، ولو كنت حريصا على مقامك ولاينجيك الخوف من الثانى فلا تضيق على نفسك، فكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ولا تكن صبيا هلوعا!



مرضه ووفاته

بقى السيد جمال الدين أشهرا على هذا الحال فى قصره محجوبا فى سجنه لا يختلط به أحد، حتى ظهر فى حنكه مرض السرطان وقد أخذ المرض يتزايد عليه، ويشتد يوما بعد يوم، فأمر السلطان أن تجرى عملية جراحية للسيد على أن يقوم بها كبير جراحى القصر، ففاضت روحه الكريمة إلى خالقها جل شأنه فى ٩ من مارس سنة ١٨٩٧م.

نرجع إلى مرض جمال وكيف أصيب به؟ ومن أين أتى له وهو محجوز فى قصره؟ ولم قصر إجراء العملية على طبيب السلطان الخاص؟ ولم منع أصدقاؤه الأطباء العالميون من عيادته؟

فقال بعض الناس: إن العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا، وقيل : لم تلحق بالتطهيرات الواجبة عمدا.

ولقد تحدث «لاون استرورج» إلى الأمير شكيب أرسلان بأن السيد جمال دعاه بعد إجراء العملية الجراحية الخاصة، وأنه رأى حاله ازداد شدة بعد العملية، فرجا منه أن يرسل إليه جراحا فرنسيا مستقل الفكر طاهر الذمة، ليراه عقب العملية، فأرسل إليه الدكتور «لاردى» فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وأن المريض قد هلك بسبب ذلك، وعاد إلى (ستسبرغ) وأنبأه بهذا الأمر المحزن، وما مضت أيام حتى فارقت روح جمال جسده.

ولقد تحدث أيضا إلى الأمير شكيب أرسلان أحد موظفى قصر

السلطان عبدالحميد بأن (قنبور زاده إسكندر باشا) كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة، ولكن كان رجل عراقى اسمه (جارح) طبيب أسنان، كان يتردد على السيد جمال، ويعاين له أسنانه، وكانت نظارة الضابطية قد استمالت (جارحا) هذا بالدراهم وجعلته جاسوسا على المترجم، فصار له عدوا فى ثياب صديق، فأردت مرة أن أمنع جارحا من الاختلاط بجمال الدين، فأشار إلى ناظر الضابطية إشارة خفية بأن أتركه، وفهمت من الإشارة أنه يذهب إلى هناك ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لا يعلم شيئا من ذلك، ويستخلص جارحا ويثق به. فلا أعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به، إلا أنه لم تمض فترة ظهور مرض السرطان فى فك السيد من الداخل، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح، وجارح هذا كان ملازما له.

وبعد موت السيد كنا نرى جارحا حزينا كئيبا كاسف البال واجم الوجه؛ مما جعلنا نشتبه أن يكون ذا يد فى إفساد الجرح بعد العملية أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل.

وبالجملة فقد مكث السيد جمال خمس سنوات فى الأستانة بين مظاهر عطف السلطان ودس رجال القصر، وكثيرا ما شعر السيد بهذا الدس وطلب التصريح له بالسفر فمنعوه بظاهر المحبة وباطن التعذيب، ومع هذا المجد العظيم وتلك الحياة الزاخرة بالأعمال الجليلة تناوله الحاقدون بالطعن، وتناول نفسه هو بالتقصير، إذ لم يكن - مع كل هذا - راضيا عن نفسه كل الرضاء، ويعتقد أنه لم ينل مأربه فى حياته ليموت شهيدا، يتجلى ذلك كله فيما أجاب به من قال له: إن بعض الأصدقاء، و«جورج زيدان» - وهو من محبيه على البعد - يرغبون فى الحصول على ترجمة حياته لنشرها فى صحفهم بقوله: «إن العيان لا يحتاج إلى **ترجمان، قل لهم ما قاله فلان عنى**.. إنى ثرثار متشرد تائه فى

الأرض.. فلما قيل له : لا ينبغى للأستاذ الحكيم أن يضن على أهل عصره بما ينفعهم ولا يضره، قال : وأى نفع لمن يذكر أننى ولدت سنة ١٢٥٤م وعمرت أكثر من نصف قرن، واضطررت لترك بلادى «الأفغان» مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأكرهت على مبارحة الهند. وأجبرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت قل نفيت منها ومن الأستانة، ومن أكثر عواصم الأرض. كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرنى، وليس فيها أدنى فائدة للقوم، وأما القول بأنها لا تسرنى.. لا بمعنى أنى نفيت من البلاد أو سجنت، كلا.. لأنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة رياضة، والنفى فى ذلك السبيل سياحة، والقتل شهادة، وهى أسمى المراتب، فأنا عن نفسى غير راضٍ، ذلك لأن الخمول قد قعد بى فلم يوصلنى إلى مراتب الشهداء، وحظى فى مصاف المنفيين من أرض إلى أرض والمسجونين فيها، فما أبعدنى فى كل هذا عن أولى الهمم، ومن قام بالأعمال الخطيرة أو الطلب الجلل.

فهذا جمال الدين وقد عرضت عليه الوظائف الكبيرة والمراتب الرفيعة فرفض بإباء وشمم، وكَمْ قدمت له نياشين الشرف والكمال فامتنع فى كبرياء وعزة.

نعم مات السيد جمال ولكن سرعان ماجحد فضله وأنكرته حكومة تركيا، مما جعلها تأمر بدفنه من غير احتفال أو تشييع، حتى أنها أصدرت أمرا سلطانيا إلى الصحف التابعة للدولة العلية بألا تكتب فى شأنه شيئا وتكتمت خبره على الصحف، بل صادرت الحكومة فى سوريا جميع الجرائد المصرية والمجلات التى أبَّنته.

دفن السيد جمال فى مقبرة مجهولة بالقرب من «نشان طامش» وبقيت تلك المقبرة مجهولة لا تزار ولا يعرفها أحد، أو لم يبحث عنها أحد، ونسى هذا الرجل الذى وهب حياته للشرق عامة وللإسلام خاصة.

إلى أن اهتم بالبحث عن المقبرة رجل من أمريكا وهو (المستر كراين) فاهتدى إليها سنة ١٩٢٦م، فجددها أحسن تجديد وأقام على حفرته شاهدا فخما من الرخام وقد نقش عليه اسم السيد جمال، ولقد كلف هذا مبلغ عشرة آلاف دولار، فأدى بهذا واجبا على المسلمين بل على الشرقيين عامة.

ولقد أتاحت لى الظروف أن ألتقى مع المستر كراين هذا فى منزل أحمد شفيق فى شتاء عام ١٩٣٥م بمدينة حلوان، ولقد تحدثنا عن السيد جمال، وقدمت له أسمى عبارات الشكر والثناء على اهتمامه بنقل رفاته. ورحم الله السيد جمال.. لقد كان شعلة اتقدت لإيقاظ الإسلام وصورة من الإخلاص بعثها بارئ الكون لتترك آثارها العظيمة الإصلاحية التى ما زلنا نجدها فى كل حركة مباركة تعود بالخير على الإسلام وأهله فى جميع الأقطار.

مشربه الدينى

كان السيد جمال الدين مؤمنا صادق الإيمان موقنا أنه على حق.. ومن آمن بالحق لم تزعجه قوة مادية مهما عظمت، ولم تضعضعه كل قوات الباطل وإن اجتمعت - بدعم عقيدته الإسلامية على أسس المنطق والحكمة العقلية، يناقش الأحكام بالعقل، فإذا به يقرها مؤديا كل ما أمره الله به، لايفرط فيه قيد شعرة مطيعا لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين، درس المذاهب دراسة وافية فاتبع المذهب الحنفى مع مراجعة الكتاب والسنة الصحيحة.

وقد قال عنه الإمام محمد عبده:

«أما مذهب الرجل فحنفى، وهو - وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا - لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية، وله مواظبة شديدة علي أداء الفرائض فى مذهبه، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام إقامته بها، ولا يأتى من الأعمال: إلا ما يحل فى مذهب إمامه، فهو أشد من رأيت فى المحافظة علي أصول مذهبه وفروعه.. أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد، يلتهب غيرة على الدين وأهله.

ومع هذا فإنه كان يسخر من القائلين بسد باب الاجتهاد، فذكر فى مجلسه يوما قول القاضى عياض على أنه حجة يستند إليه، فقال جمال الدين : يا سبحان الله إن القاضى عياض، قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناوله فهمه، وناسب زمانه.

فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب إلى الحق وأوجه وأصح من قول القاضى عياض وغيره من الأئمة. فقالوا له : إن هذا لا يكون مع القول بسد باب الاجتهاد، فغضب وقال : ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود، وبأى نص سد باب الاجتهاد، رأى إمام قال لا ينبغى لأحد بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين إما أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه على ألا ينافى جوهر النص، ثم قال : لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وعاشوا إلى اليوم لداموا مجدين مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث.

الطعن فى عقيدته

من سنن الكون أن يكون لكل إنسان قادح ومادح، على أن العلماء الأجلاء وخاصة المبرزين فى الناحية الدينية هم أكثر الناس أعوانا من العامة وغير الدينيين، وأكثر الناس أعداء من العلماء ورجال الدين.

أما أعوانهم ومحبوهم فلعلمهم وفضلهم وسعيهم وجهادهم، وأما خصومهم فلأنهم سيظفرون فى ميدان السبق ويفوقون أعداءهم وروح التنافس بينهم قوية شديدة. وأقرب شىء يطعن به العلماء على الرجل الدينى الذى برز فى ميدانهم هى عقيدته، فسرعان ما يوصف بالإلحاد والزندقة، فلا ذنب للعامة إذا - وهم يتبعون علماءهم بدون مناقشة فى الرأى ولا مجادلة فى الطريق - إذا فهموا هذا على أنه حقيقة ولا عيب عليهم إن هم نبذوا ما يذيعه ذلك الجيل من حكم وجواهر علمية.

هذا إن تمكن العلماء من ضم العامة إليهم، أما إذا كان ذلك الخصم جريئا شجاعا مقداما قوى الحجة منطلق اللسان فالعامة معه والخاصة تتأصده، ويبقى العلماء وحدهم لا يعضدهم إلا إجماعهم فى منصبهم الدينى.

وقد روى الحافظ ابن عبدالبر، وغيره - عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن بعض كبار السلف كمالك بن دينار - النهى عن سماع كلام العلماء بعضهم ببعض، وتعليله أنهم أشد تغايرا من سائر المخلوقات. حتى قال بعض الفقهاء بعدم قبول شهادة بعضهم على بعض.

وهذا السيد جمال الدين ألقى فى عقول الناس وجوب البحث وتفهم الدين، وأثبت أن شعوب المسلمين اليوم غير ما كانت عليه بالأمس، وهذا لعدم فهمهم الدين على وجهه الصحيح - فكان ذلك طعنا صريحا فى العلمـــاء، ومـاهـم عليه من العلم - فلم يبق عندهم إلا الطعن على مقـرر هذا.

وما قيل فى الحكيم المجدد من الطعن المبهم الذى لا يعرف له قائل له قيمة. لا يعد شيئا فى جانب ما قاله العلماء المتقدمون فى الإمام أبى الحسن الأشعرى، والإمام ابن حزم، وحجة الإسلام الغزالى، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام أبى حنيفة، والعالم الزمخشرى، وغيرهم.

١ - أذاع العلماء اختلافا على السيد جمال الدين الأفغانى من ناحية عقيدته هل هو فيلسوف إلهى أم مسلم أم فيلسوف مادى معطل. ولقد تعرض الإمام محمد عبده لإدحاض هذه التهمة أكثر من مرة، وبمثل هذه المبادئ السخيفة والكلمات المخزية أضلوا العوام ووضعوا عقائدهم فى خصومة دائمة مع الحقائق العلمية، وجنوا على الإسلام جناية كبرى ظهر أثرها فى الانحطاط السياسى والاجتماعى الذى كانت فيه الأمة حين ذاك، وإذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ويحث على النظر وينهى عن التقليد ويبين مضار الجمود كان أول ما يتسرعون إليه رميه بالزندقة واتهامه بوهن العقيدة، وقد يصادف ذلك هوى فى أفئدة من يميلون إلى التعطيل فعلا، فيتلقفون ما يسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت، ويسارعون إلى إذاعته بين الناس لأن من أحب شيئا أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه، ولهذا صدَّر الإمام رسالة الرد على الدهريين التى تقدم الكلام عليها بقوله:

«يحملنا على ذكر شىء من سيرة هذا الرجل ما نراه من اختلاف آراء الناس فى أمره، وتضارب أقوالهم فى حقيقة حاله، حتى كأنه قوة روحية

قامت في كل ذهن بما يلائمه، أو حقيقة كلية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله، والرجل على صفاء جوهره، وذكاء مخبره، لم يتناوله وضع الواضعين ولاحذر الخراصين إلخ».

ولقد قال عنه الكاتب التركى محمد عاكف فى مقال نشر بجريدة شورى التى تصدر فى أورينبورج:

وإن تعجب فعجب نعت خيرة رجال الإسلام بتلك النعوت مثل جمال الدين الأفغانى، مع أنه هو وتلاميذه المعروفون وحدهم بالمدافعة عن الدين الإسلامى، وهم أنفسهم المجتهدون فى ترقية بنيه بتربيتهم تربية صحيحة، وهو الذي أنفق عمره الثمين لينهض بأمته من حضيض الذل إلى أوج العز ،ويؤهلها للجهاد فى معترك هذه الحياة ليخرجوا من أسر الذلة والاستعباد.

إن جمال الدين الأفغانى - «رحمه الله» ضاقت عليه الأرض بما رحبت، سواء كان فى الأفغان أو العجم أو تركيا أو أوربا، ولم يسمح له أن يقيم فى إحدى هذه البلاد ناعم البال منشرح الصدر، ولو كان من محبى المال والجاه والمناصب العالية لترك ما اضطهد لأجله، وهو خدمة الإسلام الجليلة وإلقاء الدروس النافعة للعالم الإسلامى.

ولما حاول إيقاظ المسلمين من نومهم العميق المؤدى إلى النوم الأبدى إن لم يسعف بالمنبهات من مثل إرشاد جمال الدين .. نعم لو أن جمال الدين ترك خدمة الإسلام واشتغل ببث أفكاره فى العالم، ولم يعمل على إيقاظهم لانهالت عليه سحب الدنانير، ولكان موضع الاحترام وصاحب المقام الذى لا يرام فى جميع البلاد، ولكن تلك الروح العالية والإرادة القوية والنفس السامية لم تنزل به فى هذا الحضيض ـ حضيض المجد الزائل ـ فما زال مشمرا عن ساعد الجد، مجتهدا لترويج مقاصده

الخيرية، يصارع الأيام ويكافح النوائب، غير هياب ولا وجل، ويثبت فى موقف يتعذر على غيره الوقوف فيه حتى صح أن يقال عنه : إنه كان شهيدا فى حياته، وصدقت عليه عبارة كمال بك التركى «أحسن شىء وأفضله فى هذه الدنيا أن يكون الإنسان شهيدا فى حياته».

مشرب جمال الدين السياسى

أما هو من الناحية السياسية فقد كان صاحب عقيدة وفكرة وهى الجامعة الإسلامية، فوهب نفسه للإسلام، وطاف البلاد معتبرا الإسلام وطنه فى أى بلد كان ما دام يدين به. لقد حورب وطورد ونفى وشرد وعذب فاستهان بكل هذا فى سبيل انتصار دعوته، وكم كان بوده أن يرى ثمرة جهاده قبل مماته، ولكن عاكسته الأقدار، واعترضت سبيله عقبات جمة من الدول الاستعمارية، وفى مقدمتها الدولة الإنجليزية التى كان قد أعلن عداءه لها، كما أن حكام الشرق كانوا فى زمنه مستبدين، وكان هو يبغض الاستبداد ورجاله ما داموا بعيدين عن الإصلاح، فما كان منهم - وهذا مبدؤه - إلا أن حاربوه وعملوا ضده وأبطلوا خططه، فعاكسوه فى فكرته الإسلامية من حيث لا يعلمون، فكان كلما ذهب إلى بلد اضطهد فيها، فلم يؤسس أسرة، ولم يدخر مالا، وما كان يدرى بأى مكان ستشرق عليه شمس الغد، أو تسطع عليه نجوم السماء، أو بأى أرض يموت، فتنقل فى أفغانستان وفارس وتركيا ومصر والحجاز وروسيا والهند فهزها هزًا عنيفا، ونفخ فيها من روحه القوية الثائرة، وطاف مدن إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وأنشأ الجماعات فى باريس ومكة وغيرها، وأبرز الصحف القوية الملتهبة، كل هذا لتحقيق مقصده لتوحيد كلمة الإسلام، ولم شمل المسلمين وجمعهم تحت لواء واحد، وكان السيد جمال

يرى الإسلام سياسة رشيدة ودينا عاما خالدا للجميع. وأنه هو الوطن الحقيقى للمسلمين، لهذا يقول براون:

«إن تاريخ السيد جمال الدين هو تاريخ المسألة الشرقية كلها فى الأزمان الحديثة، يدخل فى ذلك تاريخ الأفغان والهند وتركيا ومصر وإيران».

ولقد قال الأستاذ الإمام : «إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية. فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيف مجده ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها».

ولقد قال عنه براون أيضا :

«إنه كان فيلسوفا وكاتبا وخطيبا وصحفيا، لكنه كان فوق ذلك سياسيا وكان فى نظر المعجبين به وطنيا عظيما، أما خصومه فكانوا يعدونه مشاغبا خطرا».

خاتمة

إن نواحى العظمة فى الرجل كثيرة جدا، لا أظن كاتبا يستطيع أن يوفيها حقها.

وبالجملة فقد كانت حياته سلسلة جهاد موفق وكفاح مثمر وعمل منتج ودرس مفيد.. حياة خصيبة ممتعة لها من الآثار المجيدة ما لا سبيل إلى المغالاة فى تقديره.

نعم كان السيد جمال باعث الإصلاح فى قرنه، فكان يجول بفكره فى ميدان مترامى الأطراف، ويتناول فى مباحثه خطير الشئون، ويقف جهوده على ما يهم البشر من المصالح.

والواقع أن السيد جمال الدين كان أمة وحده، وكان مجموعة من الحكماء والفلاسفة والمصلحين والعلماء والساسة.

فإذا ماذكرناه لكم أو عرفناكم به فإنما نعرفكم بمصلح دينى وفيلسوف حكيم وزعيم سياسى، نعرفكم به وقد جمع بين أولئك الصفات فى وقت تفرقت فيه الكلمة واشتد الظلم وندر النصير.

وقصارى القول فإن الغرض الذى كان يصوب نحوه السيد جمال أعماله، والمحور الذى كانت تدور عليه آماله «توحيد كلمة المسلمين». ولقد بث فى نفوس أصدقائه ومريديه روحًا منه حركت هممهم وأقلامهم، فانتفع الشرق، وسوف ينتفع بأعمالهم.

وإنى أخيرا لأفتخر بالسيد جمال الدين فى الإسلام وأقول : -

حسبه عظمة ومجدا أنه فى تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية وأول شهيد فى سبيل الحرية.

محتويات الكتاب

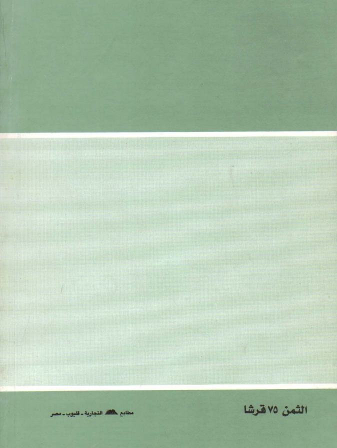
الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة





مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر


الثمن ٧٥ قرشا
مطابع التجارية - قليوب - مصر